رسالة المسجد

مجلة محكمة تصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف - الجزائر

إدارة التحرير

المدير العام مسؤول النشر

الدكتور بوعبد الله غلام الله

وزير الشؤون الدينية و الأوقاف

رئيس التحرير: الدكتور محمد عيسى، مدير التوجيه الديني والتعليم القرآني.

مستشار المدير العام: الأستاذ حمزة يدوغي، المستشار الثقافي للسيد الوزير.

أمينة التحرير: الأستاذة منية سليم، رئيسة مكتب الأحاديث الدينية ونشرات التوجيه.

هيئة التحرير

- أ.د.عبد الله بوخلخال، مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة
- أ.د. عمار مساعدي، عميد كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر
- د. محمد زعراط، عميد كلية العلوم الاجتماعية والحضارة الإسلامية، وهران
- أ.د. عمار طالبي، باحث جامعي، رئيس المجلس العلمي لولاية الجزائر
- أ.د. عبد القادر خياطي، مستشار السيد الوزير
- د . يوسف بلمهدي مستشار السيد الوزير
- د. عبد القادر فضيل، مدير مؤسسة العصر للمنشورات الإسلامية
- أ.د. موسى لقبال، باحث جامعي
- د. مصطفى باجو، باحث جامعي
- أ. عبد العزيز راس مال، مدير الثقافة الإسلامية
- د. محمد حمداوي، مدير المركز الثقافي الإسلامي
- أ. يحيىَ دوري، المدير الفرعي للتوجيه الديني والنشاط المسجدي
- د. محند أو إدير مشنان، المدير الفرعي للتعليم القرآني

رسالة المسجد
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف - الجزائر -

محتويات العدد

الافتتاحية السيد الوزير	3
ما حكم ادخار الأموال في البنوك وأخذ الفوائد الأستاذ لخضر بخدة	6
الوقاية من المخدرات من منظور الفقه الإسلامي الأستاذ عبد القادر فوكراش	14
المخدرات وآثارها السلبية على جسم الإنسان الأستاذ عبد العالي حمدي	26
الاختلاف في معنى الكلالة الدكتورة نصرة دهينة	36
المصالحة والعفو الأستاذ محمد بلقاسم بوعلاتي	44
المسك والعَنْبَر في مواقف الصِّدِّيق الأكبر الدكتور رشيد كُهُوس	49
من أعلام الجزائر الإمام أحمد المقري الدكتور العمري بلاعدة	59
علماء من بني ورتيلان "الشيخ المولود الحافظي نموذجا" الأستاذ محمد الصغير بن لعلام	69
دخول الموحدين إلى قلعة بني حماد الأستاذ حبيب صافي	84
خطبة العدد – حفظ النفس في الإسلام– مديرية الشؤون الدينية و الأوقاف لولاية: تلمسان	93

مرجعية نوفمبر

الإمام رجل مثقف، مثله مثل المرشدة في المسجد، ومن ثم فكلاهما يحمل رسالة تنوير المجتمع، وبخاصة منه فئة الشباب، بالمثل العليا التي ينبغي أن يسمو اليها وأن يكيف سلوكه وفق مقتضياتها، يعني أنه يبشّر بما يجب أن يكون؛ غير أن هذا الذي يجب أن يكون لا يوجد في المطلق، ولا في الفضاء الخارجي، وإنما هو ينطلق مما هو كائن ويرتكز على مشاهدات الواقع، الواقع المعاش الذي يسبح فيه الفرد داخل المجتمع، وقد لا يعي مكوناته ولا مصادره وموجباته، إنه الواقع الذي تتعدد مكوناته وتتشابك أحداثه وكثيراً ما تتعارض مما ينجم عنه ذلك الكم الهائل من المشاق والمعاناة الذي يشعر الإنسان إزاءه بالعجز والإحباط والإرهاق، ويتصور انه يكون في وضع أحسن وراحة أتم لو تبخرت مكونات هذا الواقع واندثرت، فمثله مثل الطائر الذي يحلق في الجو ويحس بمقاومة الهواء... ويتوقع أن لو خلا الجو من الهواء لكان طيرانه أسهل وأسرع.

إن الإنسان في خضم المشاكل التي يعانيها ليسعى دوما إلى التغيير لعله يجد في الوضع المنتظر ما يخفف عناءه أو يلبي حاجاته، هذه الحاجات التي تتولد باستمرار من أي وضع يجد فيه الإنسان نفسه.

والمثقف بدوره فرد في المجتمع يخضع لنفس الظروف ويحي نفس المحن، غير أنه يتمتع بحس قد لا يتوفر لجميع الناس، إنه يتمتع بالوعي وبالقدرة على تحليل الواقع وتمييز مكوناته...

وأسبابها وكيف تشكلت مع الزمن، وما هي مواقع العقد أو الصعوبات أو ما يطلق عليه عامة بالمشاكل..

إن الوعي الزمني أداة أساسية في يد المثقف أو في عقله تمكنه من تحليل الظواهر وآليات تشكلها ومن ثم النفاذ إلى العوامل التي ساهمت في تشكيلها... إنه بذلك يتحول

من الإحساس الذاتي بالظواهر والانفعال السلبي بتأثيرها إلى الإدراك الموضوعي للواقع وتحليل أسبابه، الأمر الذي يؤهله للبحث في القوى التي يحتمل أن تؤثر في تلك الأسباب والعوامل لينفذ إلى التغيير المطلوب في السلوكات الخاطئة الجاهلة التي لا تزيد المشاكل الاجتماعية والفردية إلا تعفنا وتعقيداً، ولا تزيد أفراد الجماعة الاجتماعية إلا تبرما ونفوراً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١ وتغيير ما بالنفس ليس بالضرورة إلى ما هو أحسن، لأن ما هو أحسن لا يكون إلا ما هو أصح وأنجع لكن التغيير قد يكون – إذ قام على الجهل، أو مجرد الانطباع الذاتي، إلى ما هو أسوأ وأشق وأدنى، التغيير المفيد هو الذي يقوده العقل والمعرفة الموضوعية والعلم الصحيح، وقد نهى الله سبحانه وتعالى نبيه داوود عليه السلام بعد أن حمّله المسؤولية أن يتبع هواه ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ص: ٢٦

وسبيل الله هو الطريق القويم الذي يدلنا عليه العلم الصحيح ويهدف إلى تحقيق القيم العليا للإنسان، منطلقا من المبادئ العامة التي يتعرف عليها العقل ويهدي إليها الدين؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ التوبة: ١١٥.

ومن أول ما هدانا الله إليه هو(كرامة الإنسان) الذي استخلفه الله في ملكوت السماوات والأرض، وسخره له وأمره أن يتدبر في ظواهره وأن يتعرف إليها ليتحكم فيها ويسخرها، وأن يحترم آليات عملها ويحافظ عليها، وأن لا يعمل على إفسادها وتشويهها، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ الأعراف: ٥٦، لأنها متى أفسدها الإنسان أصبحت غير صالحة للحياة الكريمة... بل وحتى للحياة في أبسط مظاهرها.

من آثار هذه الكرامة حرية الإنسان، وحرية الإنسان هي حرية العقل وليست حرية الهوى، لأن حرية العقل مشتركة بين جميع بني الإنسان بخلاف حرية الهوى فإنها فردية وخاصة أي أنانية لا تكون لبعض الناس إلا على حساب الغير.

إن حرية الهوى تنفي الحرية ولا تثيتها إنها رسم كاريكاتوري للحرية، وقد ضرب الله مثلا رائعا يحمل قمة الإعجاز في هذه المقارنة بين الإهتداء بالعقل وبين اتباع الهوى،

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦، ومن آيات الله التي خص بها الإنسان عقله وكرامته وحريته.

فعمل الإمام إذن هو عمل المثقف في المجتمع، وهو عمل يعتمد على المعرفة والتدريب المستمر على التحليل والبحث عن الحلول التي تحول الجهد الضائع المبذول في معاناة المشاكل إلى جهد خلاق يتجاوز المشاكل عن طريق تغيير الواقع المتردي السائد إلى واقع العمل الإيجابي المفيد الذي يفسح المجال لممارسة العقل حريته، ليس بصفته انفلاتا من المبادئ والقيم التي ترفع الإنسان إلى مصاف الملائكة والأبطال ولكن بصفته منحة الله التي تهدي إلى حياة المحبة والنصح والتعاون .

وانصع مثال لعمل العقل في تحليل الواقع واستخلاص النتائج ومباشرة التغيير هو ما فعله أبطال نوفمبر الذين فجروا الثورة ضد الظلم والطغيان واستعباد الإنسان وحرمانه من حقه في الحرية والعيش الكريم، بل وحرمانه من ممارسة حقه المشروع في أن يشارك في تدبير شؤونه الخاصة بل وحتى في تدبير الأمر العام.

لقد مكنت ثورة نوفمبر البطل الجزائري من تحرير نفسه وتحرير وطنه بل ومكنته كذلك من المساهمة في تحرير الشعوب المستضعفة في افريقيا وفي العالم.

ومن واجب المثقف الجزائري بصفة عامة، والإمام في الجزائر بصفة خاصة أن يتسلح أولا بالعلم وبآليات التحليل العقلي ليتمكن من مواصلة العمل في المستوى التي أسسه ومهد له أبطال غرة نوفمبر وهذا "بيانهم" شاهد لهم وشاهد في نفس الوقت على كل حلف لهم انحرف عن خطهم وخانته الشجاعة أو الحظ فاخلد إلى الأرض واتبع هواه.

الدكتور بوعبد الله غلام الله
وزير الشؤون الدينية والأوقاف

ما حكم ادخار الأموال في البنوك وأخذ الفوائد

الأستاذ لخضر بخدة
إمام إستاذ بولاية غليزان

هذا موضوع صعب ومعقد ولذا نرى فيه المد والجزر والقيل والقال والخلط عبر الساحة الإسلامية فهناك من يحلل وهناك من يحرم من يسمى هذه العملية وديعة وهناك من يسميها قرضا وهناك من يسميها قراضا والسبب أن هذه العملية متداخلة مع أنواع شتى من أنواع المعاملات.

ومن ذلك حاولت قدر جهدي أن أرتب الموضوع كالتالي:

أ– منهاج الموضوع

ب– مداخلاته

ج– تشخيصا وتفصيلا لأجزائه

د– تعليقا عليه

هـ – خاتمة له

أ– فيما يخص المنهاج أعتقد أنه لابد على كل باحث يبتغي الحق وخدمته أن يكون منهاج بحثه معتمدا على الأسس التالية، الموضوعية في البحث، النظرة الشمولية له، والالتزام بالأمانة العلمية، فالموضوعية تلزمه بأن يثبت الحق الذي يبتغيه من غير تفريط ولا إفراط وكثيرا ما ضاع الحق بين هذا وذاك وتلزمه الابتعاد عن العواطف والالتزام بالمنهج العلمي في وضع المعلومات وبالنسبة إلى المنظار الذي يجب عليه أن ينظر به للموضوع لا بد أن يكون منظارا واسعا كالناظر للشيء في الأرض محلقا من فوقه في السماء وبذلك يستطيع تجلية جميع خيوط وارتباطات الموضوع بما سلطه عليه من قوة ضوء كاشف.

وفيما يخص الأمانة العلمية فالملتزم بها دينونة وخلقا تفرض عليه الابتعاد عن الهوى والإعجاب بالنفس وحب الذات الأمر الذي يجعله أن لا ينقل كلاما إلا وينسبه لصاحبه و أن لا يستدل بنص إلا وهو يحذر الزيغ فيه والتأويلات التي لا يحتملها لفظه مبينا ومدققا ومدركا لما يريد أن يظهره لغيره.

الورقة الثانية

هذا المنهاج وهذه الأسس جعلتني أرتب الموضوع على ما ذكر وهنا قد وصلنا معا وننتقل معا إلى مدخله على ضوء منهاجه.

ب– أقول وبالله المستعان إن لأحكام الشريعة الإسلامية مقاصد تهوى إليها بمسالكها رحمة كبرى من المشروع الحكيم في جلب المنافع الحقيقية ودرء المفاسد عن المؤمنين المطبقين لها مركزة على أولوية المصلحة العامة ولو كانت على حساب المصلحة الخاصة كل ذلك في تطهير وتنقيح الوسيلة كي لا تكون الغاية مبررة لها ومن أجل ذلك قرر علماء أهل السنة والجماعة أن حق التحليل والتحريم هو لله وحده لأنه وحده يعلم المصلح من المفسد والحسن من القبيح، لكنهم اعتبروا أن للعقل دورا في النظر والتدبر والاجتهاد في الوقوف على أهداف ومقاصد الشريعة والفهم الصحيح لها وهذا يدفعنا للقول أنه لا بد أن ينطلق عالم الشريعة من النص مستقرنا له ناظرا ومستنبطا لعلله وأسبابه كي يتحقق من وجود علة الحكم معه حين الاستدلال به لأن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما ومن هنا أقتبس لكم من كتاب الموفقات للإمام الشاطبي عليه رحمة الله قال في فصل بيان الجهات التي تعرف بها مقاصد الشريعة الجزء الثاني كتاب المقاصد ص–666 –667 قال هناك من يعتبر أن مقصد الشارع غائب عنا ويقف على ظاهر النص ويعتبره هو المقصد بحد ذاته وهم ((الظاهرية)) وهناك من يعتبر أن مقصد الشارع ليس في هذه الظواهر يعني ليس من خلال النصوص نصل إلى مقصد الشارع بل المقصود أمر أخر وراءه قال وهم ((الباطنية)) ثم قال ولهذا قالوا بالإمام المعصوم لأنهم لما قرروا ذلك افتقروا إليه وما هذا الرأي إلاّ الكفر والعياذ بالله. ثم أنه رجع وصوب رأي الظاهرية في جانب العبادات دون المعاملات ثم قال وهذا أن

يقال باعتبار الأمرين جميعا على وجه لا يخل فيه المعني بالنص ولا بالعكس لتجري الشريعة على نظام واحد لا اختلاف فيه ولا تناقض وهو الذي أمه أكثر العلماء الراسخين فعليه الاعتماد في الضابط الذي به يعرف مقاصد الشارع إحداها مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي ثانيها اعتبار علل الأمر والنهي لماذا أمر ولماذا نهى فإن كانت معلومة فالأمر واضح وإلا فلا بد من التوقف.

والتوقف له وجهان الأول أن لا تتعدى المنصوص عليه في الحكم مادامت العلة مجهولة وإلا فهو الجهل والضلال فلا يصح الحكم على زيد بما وضع حكما على عُمر في الحالة التي لا نعلم أن الشارع هل قصد الحكم عليه أولا الثاني أن الأصل في الأحكام أن لا يتعدى بها محالها حتى يعرف قصد الشارع لعلة الحكم والمسلك إليها من مسالكها المعروفة. ومذهب الإمام مالك عليه رحمة الله موضوع على هذا المنظار وعلى منهاج الصحابة رضي الله عنهم الذين أخذوا الشريعة مشافهة من الرسول ﷺ .

فإنه رضي الله عنه لم يلتفت إلى المعاني في موضوع العبادات حيث أن الشريعة أوضحت أن الأصل فيها التوقف على النص لكنه اعتمد بشكل كبير على المعاني والعلل في مجال المعاملات حتى كان بامتياز صاحب قاعدة المصالح المرسلة والاستحسان حتى قال في هذه القاعدة إنها تسعة أعشار العلم.

الورقة الثالثة

ج: الآن ننتقل إلى تشخيص وتفصيل الموضوع وهو ما حكم القواعد على الأموال المودعة في البنوك وهل هذه العملية أعني إيداع الأموال في البنوك نسميها ودائع أو قرضا أو قراضا.

أولا: أمّا ما يشهده العالم في هذا العصر من تطور كان بسبب تحرير طرق المضاربة وتوسيعها وبالتالي تحرير التجارة والسوق من كل قيد الأمر الذي در على هذا العالم الحر هذا التطور وجعلهم يسيطرون على ثروات العالم و صدق رسول الله ﷺ حيث يقول تسعة أعشار الرزق في التجارة وعشره في المواشي.

ثانيا: إن المؤسسات المالية في العالم اليوم بصفة عامة تسير وفق النظام الرأس مالي المبني أساسا على حرية السوق وحرية المبادلات وحرية التملك وهذا النظام له

مصطلحاته ومبادئه ونحن كمسلمين قد نتفق مع غيرنا فيما الغرض منه تحقيق المصلحة إذا كان ذلك لا يهدم خلقا وليس فيه ظلمٌ وما أريد قوله بدقة أنه من الخطأ البين أن يأتي إنسان بمصطلح له ظروفه وله بيئته وله ثقافته وهو جزء من إطار عام ويحاول أن يسقطه على عملية جزئية لها ظروفها وبيئتها وثقافتها وهي عملية جزئية من إطار عام قد يصيب في جانب من جوانب هذه العملية ولكنه بالتأكيد يخطئ في الجوانب الأخرى كيف يسمى مثلا هذا المال الذي يوضع في البنك قرضا بدليل أن البنك ضامن له في جميع الأحوال قد يكون مصيبا في هذا ولكنه مخطئ بلا ريب في كونه عكس ما كان معروفا عنده في ثقافته وعاداته وهون أن المقترض هو الذي يذهب للمقرض يقترض منه ولكن العملية التي سماها قرضا المقروض هو الذي ذهب للمقترض ووضع عنده المال وكذا ما عرف عندنا أنّ المقترض هو المحتاج لكن الذي أمامنا المقترض ليس محتاجا بل المحتاج هو المقرض محتاج إلى تأمين ماله إلى تنميته هذا من جهة ومن جهة ثانية هناك من يقول أضع مالي في البنك لا أخذ عليه الفائدة سواء يضعه ابتدء في خانة اللافائدة أو يضعه فيها ولا يأخذها أو يأخذها ويتصدق بها وكل هذا لا ينفعه فهو شريك البنك في الحسنات والسيئات مادام أنه مشترك معه بسهمه في أعمال البنك وأمّا ماله يستثمره البنك و من جهة ثالثة قد يقول من يرى الادخار في البنك لا يجوز أنا لا أضع مالي في البنك البتة فيقال له أنت مشارك في البنك من خلال مرتبك الشهري الذي يحول إليك من مؤسستك التي تعمل فيها عن طريق البنك أو ليس البنك هو الذي يصنع لك الشيكات وأن أجرتك قد تبقى في البنك أياما أو أكثر من أسبوع فأنت مدعم له ومشارك معه ولو جزئيا ومن جهة رابعة أو لا تعلم أن هذه السلع المستوردة تأتي عن طريق البنوك بالاعتماد السندي، وممكن جدا أن المؤسسة التي تعمل بها تلجأ في بعض الأحيان لشراء سندات مالية من المصرف لتسديد أجور عمالها ويتقاضى المصرف عن ذلك الدين فائدة مالية إذا في نهاية المطاف يجد هذا الإنسان نفسه مرغما على التعامل مع هذه المصاريف المالية مثل شركة التأمين من منا ليس له علاقة بشركة التأمين أو يستطيع الاستغناء عنها وما يقال في مضاربة البنوك في الأموال

المدخرة يقال فيما يقتطع لشركات التأمين من أجور العمال والتجار وغيرهما لأنها تضارب بهذه الأموال وهناك من فرق عمل شركات التأمين والحقيقة أن عملها واحد فمن يحرم جزءا من الواقع المعيش هو كمن يأكل الخنزير ويحرم جزءا ضئيلا منه ومن يقرر الفرار من الواقع فإنه قد حكم بالانتحار على نفسه وما يقال في الفرد يقال حتى في الدولة أي دولة كانت إلا وهي مرغمة على التعامل مع هذه المؤسسات المالية البنوك وأسواق البورصات والصناديق المالية العالمية والإقليمية كصندوق النقد الدولي والبنك العالمي مثلا.

الورقـة الرابعـة

وعليه فلا يمكن أن تكون الأموال المدخرة في البنوك قرضا فهل هي مضاربة ((قراض)) هذا أولى وأصح فما هو القراض. هو في اللغة مشتق من القرض وهو القطع لأن مالك المال قطع قطعة من ماله ودفعها لغيره واصطلاحا هو توكيل على مال لاستثماره والمضاربة به.

ولم يأت في القرآن ولا في السنة نص جزئي لمشروعيته وقد كان في الجاهلية وأقره الرسول ﷺ وعمل به الصحابة وقد قارضت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها الرسول ﷺ قبل الزواج بها في تجارة خرج بها إلى الشام.

وأخرج الإمام مالك رحمه الله في موطئه عن زيد بن اسلم عن أبيه أنه قال خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهم مجاهدين إلى العراق ولما رجعا مرا بالبصرة وأبو موسى الأشعري أمير بها فدفع إليهما مالا وقال لهما اسلفكماه فتبتاعان به متاعا ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال للخليفة وتأخذان الربح فكان ذلك و لما دفعا رأس المال لعمر بن الخطاب قال لهما ادفعا الربح معه فراجعاه وقال له لو ضاع منا لضمناه فكيف ندفع ربحه فقال أحد الجلساء يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا ففعل وأخذ نصف الربح فبالرغم من أنه أقرض ولكن أمير المؤمنين حوله إلى قراض وأخذ نصف الربح والدليل في كونه قرضا أن أبا موسى الأشعري قال لهما اسلفكماه وإنهما راجعا الخليفة وقالا لو ضاع لضمناه وبالتالي الشيء الذي بقي أن يقف عليه مبطلو مضاربة البنوك هو

في تحديد الفائدة مسبقا، قالوا وهذا مبطل للمضاربة لأنها عملية مجهولة الربح فيقال لا، فالربح بالنسبة للبنك محقق مائة بالمئة وكذا صاحب المشروع جهالة في العملية وبالتالي فالمضاربة صحيحة وهي كقول المالكية يجوز أن يتراضى العاقدان بعد العمل على جزء معين قليل أو كثير، لماذا لأن جهاله الربح انتفت وكل ما أبطل به الفقهاء المضاربة كان بسبب جهالتها فإذا انتفت صحت بأي صورة يبقى أن يقال نعم أن البنك يقرض المستثمرين وكذا المستهلكين فما القول في المستهلكين أقول، نعم أن القرض للمستهلك ربا ولكن يستطيع المستهلك أن يحوله من قرض إلى قراض كيف ذلك أن ينوي بالقرض التجارة مثل قصة ابني عمر فإذا اقترض لبناء سكني نواها للتجارة وعندما يستوفي الدين أجله باع السكنى ودفع للبنك ما في ذمته والعملية صحيحة لأن الربح كذلك في السكنى محقق – ويقاس على هذا ما بقي من مضاربة الربح فيها محقق وليس هنا من باب التحايل ولكن مثل قول مالك في رجل أسلف رجلا ثم سأله أن يقره عنده قراضا فقال مالك لا أحب ذلك ولكن يقبض ماله ثم يدفعه إليه قراضا وأقل ما يقال أن العملية في حكم الضرورة، البنك والمستهلك في ذلك سواء وكذلك يمكن أن تكون هذه الأموال المدخرة، في البنوك في حكم الودائع فالوديعة، هي توكيل مجرد على حفظ مال ولكن الفقهاء اتفقوا على أنه لو انتفع بها عليه ضمانها لو أعطى جزءا من الربح للمودع لما اعتبر هذا ربا، لأنه بالرغم من عمله بها وضمانه بقيت في حكم الوديعة، ومن قال أن هذا الجزء من الربح الذي عينه المودع للمودع ربا اضطر أن ينقل العملية من إطارها الوديعي إلى إطار القرض، لأن قوله لا يثبت إلا بذلك وهذا غير صحيح، بدليل أن القرض يملك للمقترض بمجرد القبض ولا يمكن صاحبه أن يسترده ولو بعد دقائق، إذا كان يعقد على الأقل خلقيا بخلاف الوديعة ، وهي ما تنطبق على الأموال المدخرة في البنوك، وبعد هذا النقاش ظهر لنا أن القول في الأموال المدخرة في البنوك هي قروض ضعيف جدا ويخالف الواقع ولا يعول عليه.

الورقة الخامسة

د– التعليق لنتتبع النوصوص التي وردت في الكتاب و السنة على الأقل فيما

ورد في موضوع الربا والقرض والقراض والوديعة، هل فيها ما يعتبر بشكل صريح أن هذه الفوائد ربا أبدا وكل ما استنبطه الفقهاء أو على الأقل جله في وضع الشروط واستخراج الصور الصحيحة وغير الصحيحة إنما هي اجتهادات في فرع الفرع نزولا بعيدا عن الأصل وفي اعتقادي أتعبوا أنفسهم وأتعبونا معهم فيما لا طائل تحته في كثير من البحوثات ولكن مذهب الإمام مالك رحمه الله في مرحلته الأولى أرفع وأتقى وأصلح في ذلك من غيره ومن ذلك أن الإمام مالك جعل الأصل في باب المعاملات الدنيوية منظر فيه إلى المعاني والمصالح التي قال أنها تسعة أعشار العلم بينما في العبادات ينبغي التثبيت بالنص وقال بالاستصحاب وقال بالاستحسان وتوسع فيه حتى إتهم بينما هذا هو الواقع الملائم لتقلبات وتطور الحياة واختلاف ظروفها الزمنية والمكانية والثقافية وبهذا فالدين أمانة والتزام ولا ينبغي أن يتم بهذه الطرق اللامسؤولة والظنون التي لا يغني من الحق شيئا.

الخاتمة

هـ – قصدي من هذا النقاش المعمق هو لفت الأنظار إلى أن الموضوع متشابك ويحتاج إلى تعمق كبير وهذا ما جعل العلماء يختلفون حوله ولم نطلع على قول معتبر فيه كإجماع المجامع الفقهية على اتجاه واحد مثلا وكثير من الفتاوى فيه وراءها خلفيات ثقافية ومناهج فقهية وربما حتى توجهات سياسية ولهذا أقول أن الأصل في الأشياء الإباحة حتى يرد النهي وأن تحريم الحلال إثم كبير كتحليل الحرام سوا بسوأ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النحل: ١١٦ – ١١٧ ، لكن الحلال بين والحرام بين وإنما الإشكال في المتشابه وما دام الأمر هكذا فالمعول عليه هو الوقوف على القاعدة التي اتفق عليها المسلمون وهي الأصل في الأشياء الإباحة وبهذا أن التحريم في الفوائد على الأموال المودعة في البنوك مستبعد وأن الفتوى به يترتب علبها فساد كبير وأن طرفيها بين الإباحة والتوقف فمن نظر فيها واقتنع بالإباحة فليفعل وليقل بهذا ومن لم يصل لهذه القناعة فالتوقف في حقه ارتجح.

هذا يظهر لي أن الصورة التي وددت

أن أرسمها في أذهان الجميع قد اكتملت والله أسأل العفو والعافية في الدنيا والآخرة ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ البقرة: ٢٠١ اللهم أرنا الحق حقا وأرزقنا إتباعه وأرنا الباطل باطلا وأرزقنا اجتنابه اللهم وكما جمعتنا في بيتك هذا فأجمعنا على حوض نبيك محمد ﷺ يوم القيامة.

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

أهم المراجع

1- الموافقات للإمام الشاطبي رحمه الله.
2- أصول الفقه للشيخ محمد الخضربك.
3- الإسلام واديولوجية الإنسان لسميح عاطف الزين.
4- الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي.
5- تنوير الحوالك للإمام السيوطي.
6- فقه السنة للسيد سابق.
7- فقه المعاملات المالية لمحمد علي فركوس.
8- أجوبة في المعاملات المالية للدكتور عامر سعيد الزيباري.

الوقاية من المخدرات من منظور الفقه الإسلامي والدراسات التربوية

الأستاذ عبد القادر فوكراش
مفتش التعليم المسجدي والتكوين ولاية عين الدفلى

فقد بدأ القلق بتزايد في الدول العربية عموما، وفي جزائرنا الحبيبة خصوصا من رواج استهلاك المخدرات بين فئة الشباب، بعد أن كانت الجزائر محطة عبور لهذه السموم في الأعوام السالفة، لتشهد في الآونة الأخيرة محاولات زرع و إنتاج هذه السموم عبر مناطق محدودة، والأخطر من هذا انتقال هذا الوباء ليشمل فئة الإناث فغرق البعض في بحر الإدمان، فاحتاج الأمر إلى ضرورة التعرف على أسباب هذه الظاهرة ودراسة الكوامن التي تدفع الشباب إلى تعاطي المخدرات وتقديم الحلول الممكنة لتكون خطا دفاعيا يحمي مجتمعنا وشبابنا عن طريق الإقناع بالإمتناع عن تناول المخدرات .

تعريف المخدرات: يجدر بنا أولا أن نعرف بالمخدرات حتى نتصورها تصورا صحيحا فالحكم على الشيء فرع من تصوره .

أ- التعريف اللغوي: تدل على السترة والفتور .

فالخدر: ستر يُمد للجارية في ناحية البيت فصار كل ما واراه من بيت ونحوه خدرا .

أما الخدر: بمعنى الكسل والفتور كقولنا خدر العضو إذا استرخى فلا يطيق الحركة ومنه خدر جسمه وخدرت يداه أو رجله [1] ومن هذا اللفظ كان اشتقاق المخدرات .

ب- التعريف الإصطلاحي: هي كل مادة طبيعية أو مستحضرة في المعامل من شأنها إذا استخدمت في الأغراض الطبية أو الصناعية الموجهة أن تؤدي إلى فقدان

كلي أو جزئي للإدراك بصفة مؤقتة وهذا الفقدان تختلف درجته بحسب نوع المخدر والكمية المتعاطاة كما يؤدي هذا الإعتياد أو الإدمان بالشكل الذي يضر بالصحة النفسية والجسمية والإجتماعية للفرد.

ج – تعريف منظمة الصحة العالمية: "هي كل مادة خام أو مستحضرة أو تخليقية تحتوي على عناصرمنومة أو مسكنة أو مفترة من شأنها إذا استخدمت في غير الأغراض الطبية أن تؤدي إلى حالة من التعود والإدمان مسببة الضرر النفسي أو الجسماني للفرد والمجتمع".

المراحل الأساسية لتعاطي المخدرات:

لا يختلف إثنان في كون الشباب أكبر شريحة معرضة لتعاطي المخدرات كونهم يمرون بأصعب مرحلة في حياتهم: مرحلة الإنتقال من الطفولة إلى الشباب والتي تسمى مرحلة المراهقة وما يصحبها من تغييرات نفسية مرتبطة بالتغييرات العضوية إذ تنشط الغدد التناسلية ويزداد النمو العظمي مما يجعل المراهق لإثبات وجوده الشخصي باتخاذ قرارات بمفرده، وتعامله مع الراشدين دون وساطة أبوية، مما قد يوقعه ضحية سائغة في يد شباكات الإجرام المتنوعة فيتدرج في التعاطي مع هذه السموم على المراحل الآتية :

أ – مرحلة التعاطي التجريبي: هذه المرحلة الأولية غالبا ما تبدأ بتدخين السجائر بين أوساط الشباب وقد تكون مصحوبة بشرب الخمر حيث أن المتعاطي يجد لأول مرة سلبية، فمدخن السيجارة لأول مرة–غالبا –ما يسعل ويعاني من حرقة العينين واحمرارهما، ومتعاطي الكحول يضطر في بداية الأمر إلى تخفيفه بالماء ومتعاطي المخدر المبتديء – غالبا– ما يتقيأ، إلا أن هذه التأثيرات السلبية السيئة الأولية تفشل في إدخال الروع في نفوس معظم المبتدئين، لأنهم يجدون من يقدم لهم التوجيه من ذوي الخبرة ويؤكدون لهم أن هذه الأعراض السلبية ستزول مع الإستمرار في تعاطيها، والذي نؤكد عليه أن الإستخدام المزدوج للسجائر والخمر مفضي حتما للدخول إلى عالم المخدرات حيث قام أحد الباحثين بدراسة تتبعية حول تعاطي المراهقين للمخدرات فوجد " أن تعلم السجائر هو تدريب ممتاز لتعلم تدخين الماريهوانا (الحشيش)، حيث أن تدخين الماريهوانا إلى حد ما دائما يبدأ

بتدخين السجائر "إ. هـ

ب- مرحلة التعاطي العرضي أو الإجتماعي: وتسمى أيضا بمرحلة الإعتياد، فبتكرار العرض على الشباب وتأثير رفقاء السوء عليهم يصبحون يتجاوبون مع تعاطي السموم ويقبلون بها متى توفرت لهم .

ج- مرحلة التعاطي المنتظم: يصبح المتعاطي يبحث بجدية عن العقار المفضل ويحاول إيجاد المصدر للتزود به، والتأكد من استمرارية الحصول عليه وهذه المرحلة تسمى بمرحلة التحمل يكون التعاطي معها بمقدار مرة أو مرتين أسبوعيا بانتظام .

د- مرحلة الإدمان: وتسمى بمرحلة الإعتماد وهي أخطر المراحل وأشدها، إذ تصبح المخدرات على اختلاف أنواعها جزءا رئيسيا من حياة المتعاطي، وأي محاولة لفصل المتعاطي عن المخدر ستقابل بمقاومة قوية ولن يقف أمام المتعاطي أي عائق مادي أو أسري أو ديني في سبيل الحصول على المخدر الذي تعود عليه ولو هدد بالسجن أو فقدان الوظيفة أو الطرد من حياة العائلة [2] فيصبح الإدمان مشكلة تترجم وتعبر عن بنية شخصية مضطربة وعن بنية مجتمع يتصف بانهيار قيمه وتفكك نظام علاقاته الأسرية[3].

الأسباب المؤدية إلى الإنحراف و تعاطي المخدرات والعلاج له: هناك عوامل متفق عليها عند علماء النفس والإجتماع والدين، إذا توافرت بعضها أو كلها فغالبا ما تجعل الفرد ينحرف سلوكيا واجتماعيا وإذا عرفت هذه الأسباب أمكن تقديم العلاج والوقاية من خطر المخدرات ومن تلك الأسباب والعلاجات:

1- الصحبة السيئة: تعتبر الرفقة السيئة من أهم العوامل التي تؤدي إلى انحراف المراهق (ة) الشاب (ة) وذلك على قاعدة قابلية التأثر والتأثير المتبادلة وعلى الخصوص بين الشباب فهو يتأثر بأصدقائه في سلوكهم ومظهرهم وملبسهم، فعلى الأولياء تجنيب أبنائهم قرناء السوء وإيجاد الرفقة الصالحة لهم، فالرفيق الصالح كحامل المسك لا ترى منه إلا الطيب والخير، وصحبة الأشرار كنافخ الكير لا يصيبك منه إلا الدخان أو الضرر المتوقع وذلك كما قال الحبيب ﷺ **" مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحاذيك وإما**

أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة"[4] ، وعلى هذا حث القرآن الكريم المسلم على اتباع من يذكره بالله فقال عز وجل " ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ الكهف: ٢٨

2- **الفراغ والغفلة**: إن من نعم الله على الإنسان أن أوجده في هذه الدنيا لعمارتها وملىء الوقت فيها بالعبادة المتنوعة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦، ولقد ذكر ابن القيم –رحمه الله – في معرض حديثه عن كيفية عمارة المسلم لوقته ؟، فقال:(إن عمارة الوقت تكون بالاشتغال في جميع آناء الوقت بما يقرب إلى الله أو يعين على ذلك من مأكل أومشرب أو منكح أو منام أو راحة، فإنه متى أخذها بنية القربة إلى ما يحبه الله وتجنب ما يسخطه كانت من عمارة الوقت وإن كان له فيها أتم لذة فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات) ودل على هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾ الزخرف: ٣٦، فالغفلة عن الله تفتح باب الشيطان وتعكر صفو الحياة وتوقع صاحبها في القلق والهم والحزن الذي بدوره يوفر الأرض الخصبة للولوج إلى عالم الإنحراف، فالفراغ الديني يؤدي بصاحبه إلى التخبط والتردي فيبدأ حياته بالتردد على المقاهي والإكثار من النظر إلى القنوات الفضائية والتسكع في الطرقات والأسواق بلا هدف، شعاره في الحياة: نريد أن نقتل الوقت ! وهذا ما وصل إليه أحد الباحثين إلا أن البلاد الشرقية – عموما – لا يستفيد البعض من وقته فيقتله في أشياء تافهة رخيصة تلعب دورا كبيرا في العكوف على تعاطي المخدرات وإدمانها[5] فعدم استغلال الوقت في الخير والصلاح يوقع في الغبن والتيه وهو ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: " **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**[6]" والأصل في الغبن أن يكون في البيع والشراء والتجارة، وهنا شَبَه المكلف بالتاجر، والصحة والفراغ برأس المال، لكونهما من أسباب الربح ومقدمات النجاح فمن عامل الله بامتثال أوامره ربح ومن عامل الشيطان بإتباعه، ضيع رأس ماله وخسر الخسران المبين " .

3- **ضعف التربية الأسرية:** إن لدور الوالدين في تربية أبنائهم ورعايتهم وإرشادهم تحصين فعال في بناء شخصية الشباب وأي تقصير في هذا الشأن ستكون له عواقب وخيمة على سلوك الأبناء بسبب تخلي الأسرة عن القيام بدورها، فالقرآن يرشدنا إلى الوقاية بمفهومها الشامل في الدنيا والآخرة فيقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ التحريم: ٦، فلقد حمَل الإسلام من خلال هذه الآية ونصوص أخرى مسؤولية الآباء والأمهات في تربية أبنائهم ووقايتهم من الإنحراف فالبيت هو المدرسة الأولى لهم فلا مجال لتقصير الوالدين اتجاه أبنائهم فهم أمانة في أعناقهم فلا بد أن يراقب الوالدان أين يذهب الأولاد ؟ ومع من يلعبون خارج البيت ؟ وعدم السماح لهم بالسهر إلى ساعة متأخرة من الليل والقيام بدور التوجيه التربوي دون القسوة أو التشهير والسخرية أو التوبيخ في أسلوب المعاملة كل ذلك قد يؤدي إلى الإنحراف غير المحسوب، كما أن للين وعدم المحاسبة والمساءلة دور في الإنفلات الأسري للأبناء ولهذا قال ابن القيم – رحمه الله "وكم ممن اشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانته على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه وأنه يرحمه وقد ظلمه ففاته انتفاعه بولده وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء "[7] فنجاح تربية الأبناء، بأن يكون الأب والأم قدوة حسنة لأبنائهم وبناتهم فمنهما يتعلمون الصدق والأمانة، ومنهما يتزودون بالإيمان ويتعلمون العبادة الصحيحة التي تعينهم على ضغط الحياة وصعابها، فالتربية الأسرية الصحيحة تُحصن الشباب من الانزلاق في عالم الإنحراف وتعاطي المخدرات.

4- **المدرسة:** الكل يعلم أن المدرسة هي المحضن الثاني بعد البيت في تلقين الأبناء القيم والأخلاق والسلوك زيادة على دورها في نقل المعلومات العلمية والأدبية للتلاميذ، على مراحل من العمر: من السادسة إلى الرابعة عشرة وهي التي تتميز بوجود الطفل في المدرسة الأساسية –(الإبتدائية والمتوسط) – ومن الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة وهي مرحلة الثانوية – هاتين المرحلتين يخرج الطفل فيها عن حماية ومتابعة أسرية له لبعض

الوقت، فيختلط بأطفال من سنه قد يتعرض خلالها لبعض الأوجه السلبية التي قد تؤدي إلى الإنحراف عموما (الدخان/ السب/ الضرب...إلخ) مما يوجب على المربين استعمال كل مواد التدريس في ترسيخ التربية الحسنة والسلوك القويم لدى التلاميذ مع التركيز في المرحلة الأولى في تلقين دروس الأخلاق أسلوب التعلم بالعمل، وتجنب المفاهيم المجردة، فالأطفال يفعلون ما يروننا نفعله، وليس ما نأمرهم به فعله (شرب الدخان /القدوة السيئة ...) كما يجب استغلال الرياضة المدرسية والأنشطة العلمية الفردية والجماعية وفضاء المكتبات لإمتصاص قدرا من توتر التلاميذ والقضاء على أي استعداد للإنحراف لديهم [8] وبما أن العملية التربوية عملية مستمرة في الزمان فإن المرحلة الثانوية تتميز باكتساب التلاميذ لأسس التفكير فدور الأستاذ يأخذ نطاقا أوسع في ترسيخ المبادىء والقيم النبيلة كون الطالب الثانوي في مقدوره مناقشة الأفكار المجردة، وإصدار أحكام على مواقف معينة وحل مشكلات حقيقية، فيمكن تكليف الطلبة في هذه المرحلة بإنجاز بحوث علمية على شكل أفواج بحث تتناول أضرار المخدرات وأسبابها والحلول الممكنة

(الصحة، العدالة) وذلك للوقوف على خطرها ووقايتهم منها كما نترك هذه الأفواج تجري لقاءات مسطرة مع المتعاطين المسجونين لإعطاء النصائح والمواعظ لهم. (مؤسسة الوقاية وإعادة التربية).

5- وسائل الإعلام المفسدة: مما لاشك فيه أن عصرنا هذا هو " عصر الإعلام " فالإعلام بمفهومه الواسع وسيلة تعبير واتصال بأشكال مختلفة: المكتوب والمسموع والمصور فلا أحد ينكر دورها في توجيه الشعوب وصياغة مفاهيمها وتصوراتها وسلوكاتها، وترسيخ القيم والمبادىء فالإعلام سلاح ذو حدين نافع وضار ويحتل التلفاز الوسيلة الإعلامية الكبرى التي تنفذ إلى كل شرائح المجتمع على اختلاف أعمارها فهو يتخطى حاجز الأمية كونه يجمع بين الصوت والصورة والحرف فهو يخاطب العقل عبر الأذن والعين في آن واحد فلقد ذكر أحد التقارير العلمية لمنظمة اليونسكو(أن الإنسان يحصل على معلوماته بنسبة 90% عن طريق النظر ونسبة 8 % عن طريق السمع

وأن العين تجذبها الحركة أكثر من أي شيء آخر) فكان لزاما على الجهات الرسمية فرض رقابة صارمة على البرامج المستوردة من أفلام ومسلسلات عربية كانت أم أجنبية وعلى الخصوص التي تتناول أمور المخدرات والخمور بصورة شيقة ومغرية والمضللة للكثير من متابعيها، وذلك حتى لا تكون منافية لأخلاق المجتمع وتقاليده الإيجابية، بل يجب أن تعمل على إبراز مخاطر المخدرات، وإظهار آثارها السلبية على الفرد والمجتمع من خلال التحقيقات والتحليلات العلمية التي يشارك فيها علماء الطب والنفس والإجتماع وكذا جهات الأمن المختصة والأئمة وطلبة العلم بغية الإصلاح ووقاية الشباب، كما يجب استغلال فضاء الأنترنات السريع في نقل المعلومات في ثواني عبر أرجاء المعمورة وذلك بنشر مواقع دينية إرشادية مدعمة بالطب وما توصل إليه في سبيل الحد من هذه السموم، فنحن المسلمون في أمس الحاجة إلى إعلام صالح هادف مؤثر يعرض مبادىء الإسلام وأحكامه وآدابه وقيمه، فيتعلم هذا الدين ويتأثر به المسلمون وأبناؤهم وغير المسلمين أيضا فيهتدوا إليه ويعرفوا عظمته ويعلموا لماذا ارتضاه الله لنا، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة: ٣.

دور الجمعيات والنوادي: هي جمعيات ذات نفع عام كالهيئات الشبانية و النوادي المتخصصة (علمية، خيرية، موسيقية، أدبية، رياضية ...) تقوم بدور توجيه الشباب الذين يعانون مشاكل اجتماعية ونفسية وذلك من خلال تقديم النصح والتكفل الصحي والنفسي بهم (SOS، مراكز إعلام وتنشيط الشباب، الفروع التابعة لمديرية النشاط الإجتماعي والحماية الإجتماعية، الجمعيات الخيرية ...) فهذه المراكز لا بد من تدريب المؤطرين فيها وتلقينهم الصعوبات التي يتلقاها الشباب في مرحلة المراهقة وتكوينهم على أساليب الحوار والإقناع في التعامل مع المراهق، وكيفية إدماج هؤلاء في الحياة الإجتماعية من خلال بعض الأنشطة كالرياضة الجوارية، نظافة الأحياء، تأطير أنصار الفرق الرياضية ...، وهذا العمل التربوي الهام الهادف إلى استفراغ طاقات الشباب لا يؤتي ثمره إلا إذا وجد مساندة معنوية بدرجة أكبر

من قبل السلطات العمومية والأولياء، والمواطنين عموما، فمساندة المجتمع تشعر الشباب بأنهم محل اهتمام الجميع وأن المجتمع لا يتخل عنهم، فيسهم هذا العمل في انتشال الشباب ووقايتهم من عالم الإنحراف وتعاطي المخدرات .

دور المؤسسات الدينية: باعتبار المسجد مؤسسة دينية روحية تربوية واجتماعية يتوافد عليها المصلون من مختلف الأعمار والمستويات فكان لزاما على القائمين عليها من أئمة ومرشدين الحرص على إظهار حكم المخدرات بالدليل، وتشخيص مواطن الخلل والإنحراف لمعالجته، وبيان مقاصد الشريعة الإسلامية في حفظ الضروريات الخمس التي يقوم عليها بناء المجتمع [الدين النفس، العقل، العرض، المال]، حيث جاءت النصوص المحكمة تحرم كل ما يلحق الضرر بها، فالمخدرات أشد ضررا من الخمر المعروف حكمه بالنص ؛ فهي تفسد العقل الذي يعتبر أهم ملكة أنعمها الله على الإنسان، كما أنها تخرب البدن والنفس وتضيع المال، ولهذا أجمع العلماء على تحريمها بلا خلاف، كما أنهم أجمعوا على إنزال أشد العقوبات بمرتكبيها ومروجيها وتركوا تقدير العقوبة في ذلك إلى (السلطات وما تراه مناسبا للردع من ضرب، أو سجن أو غير ذلك، ويجوز أن تكون عقوبة التعزير القتل إذا كانت أصلح للجاني والمجتمع، ولا يحصل الردع إلا بها، كما في حالات الإدمان واحتراف الإجرام) ودليل تحريمها:

من الكتاب: آيات كثيرة دلت في معناها العام على تحريم كل مضر ومفسد واعتبرته الشريعة من الخبائث ومنها: قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ الأعراف: ١٥٧ ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ البقرة: ١٩٥، ووجه الإستدلال من الآية أن الله تعالى اعتبر الحفاظ على النفس من الضروريات وكل ما يعرض النفس البشرية إلى الهلاك فهو حرام، والمخدرات ثبت ضررها على الصحة والبدن .

من السنة: دلَ على تحريم المخدرات أحاديث كثيرة جاء فيها تحريم مطلق ما

أسكر وهي مروية بطرق عديدة منها –حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"كل مسكر حرام"** رواه البخاري ومسلم ولقد علق عليه ابن حجر في الفتح بقوله (... واستدل بمطلق قوله صلى الله عليه **" كل مسكر حرام "** على تحريم ما يسكر ولو لم يكن شرابا فيدخل في ذلك الحشيش و غيرها ...) .

– حديث أم سلمة ﷺ قالت (**نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر**) ووجه الإستدلال أن المخدر مُفتر لأنها مسكرة وتذهب العقل .

من الإجماع: نقل الإجماع على تحريم المخدرات – ومنها الحشيشة – غير واحد من العلماء:

– يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (... وأما الحشيشة الملعونة المسكرة فهي بمنزلة غيرها من المسكرات والمسكر منها حرام باتفاق العلماء) [3] .

– جاء في سبل السلام قوله (..قال الخطابي: المفتر كل شراب يورث الفتور والخور في الأعضاء، وحكى العراقي وابن تيمية الإجماع على تحريم الحشيشة، وأن من استحلها كفر..) [4] .

من القياس: قاس العلماء حكم المخدرات على حكم شارب الخمر لإشتراكهما في علة التحريم وهي الإسكار وذهاب العقل، بل ثبت أن المخدرات أشد ضررا من الخمر ،علما أن الشريعة لم تأذن بتعاطي ما هو أقل منها مفسدة وأخف ضررا ،كما جاء في حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (**ما أسكر كثيره فقليله حرام**) فلا أحد من العقلاء: يقول بأن المخدرات من الطيبات المباحة بل كل العقلاء متفقون على اعتبارها من الخبائث المحرمة لأضرارها الخطيرة .

المعاد ما خلاصته (إن الخمر يدخل فيها كل مسكر: مائعا كان أو جامدا، عصيرا أو مطبوخا فيدخل فيها لقمة الفسق والفجور– ويعني بها الحشيشة – لأن هذا كله خمر بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح الذي لا مطعن في سنده ولا إجمال في متنه، إذ صح عنه قوله–(... **كل مسكر خمر** ..)

– يقول الداعية الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – في كتابه مائة سؤال عن الإسلام (.. ومن السخف كذلك تصور الشارع يحرم الخمر السائلة ،ويتجاوز

عن عقاقير جامدة قد تكون أشد ضررا من الخمر ضراوة وأعظم فتكا، وإذا كان أئمة الفقه الأقدمون لم يذكروا الحشيش والأفيون فلأن بيئاتهم لم تعرفه فلما ظهرت بعض المخدرات أيام ابن تيمية عدها لفوره من الخمور، وفي أيامنا هذه ظهرت عقاقير أخرى كالكوكايين والماريجوانا وغيرها تغتال العقل وتهلك المدمن وتستأصل إنسانيته فكيف تترك ؟)

– يقول فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي – حفظه الله– في كتابه الحلال والحرام (1988) في معرض تأصيله لحرمة المخدرات (" الخمر ما خامر العقل " كلمة نيرة قالها عمر بن الخطاب ﷺ من فوق منبر النبي ﷺ يحدد بها مفهوم الخمر حتى لا تكثر أسئلة السائلين ولا شبهات المشتبهين فكل ما لابس العقل وأخرجه عن طبيعته المميزة المدركة الحاكمة فهو خمر حرام حرمه الله إلى يوم القيامة) .

الهوامش

(1) لسان العرب لابن منظور : مادة خدر ، وتاج العروس– للزبيدي : مادة خدر ، والقاموس المحيط للفيروز آبادي : مادة خدر.

(2) مركز أبحاث مكافحة الجريمة بالرياض ، المخدرات والعقاقير ، إصدرات مركز مكافحة الجريمة بالرياض التابع لوزارة الداخلية (ط. شركة الطباعة العربية السعودية 1985) ص30

(3) معاليقي،عبد اللطيف المراهقة أزمة هوية أم أزمة حضارة شركة المطبوعات بيروت ط2 2002 ص187.

(4) أخرجه أبو داود كتاب الآداب باب من يؤمر أن يجالس ، ص 526

(5) سورة الكهف / 28 –

(6) سورة الداريات /58

(7) سورة الزخرف /36

(8) سيكولوجية الشباب العربي عبد الرحمان محمد عيسوي بتصرف ص59 دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1985 .

(9) أخرجه البخاري كتاب الوقائق ، باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا أعيش إلا عيش الآخرة ص1232 حديث رقم 6412.

(10) العك خالد عبد الرحمان ، تربية الأبناء والبنات في ضوء القرآن والسنة دار المعرفة بيروت ط6–2003 ص367 –(10) سورة التحريم /6 –

(12) ابن القيم الجوزية، شمس الدين محمد تحفة المولود بأحكام المولود تحقيق محمد أبو عباس ، مكتبة القرآن القاهرة ص 163 .

(13) لقد ذكر أحد الباحثين د/ بسام خضر سالم أحمد الشطي من جامعة الكويت إلى تحديد الأطفال الذين لديهم استعداد للإنحراف الدراسي عن غيرهم :

1– الطفل الذي يسيء الظن بالآخرين

2– الطفل الذي تثبط همته بسرعة ،

3– الطفل المشاكس

4– الطفل الذي تعود السلبية.

5– الطفل المنطوي الخجول ،

6– الطفل الذي يقل ذكاؤه عن المعدل الطبيعي " بتصرف من مقال توعية الشباب من خطر المخدرات – مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية – الكويت عدد39 ديسمبر 1999 ص 218.

(14) العقيلي يحي بن سليمان – الفقه ومنهج الإستعفاف – دار الدعوة الكويت ط1 1989 ص 51.

(15) خالد أحمد العلمان – المراهقة بين الفقه الإسلامي والدراسات المعاصرة – دار المعرفة – بيروت ط1 2006 ص 298/297.

(16) سورة المائدة/3.

(17) د/ الصادق عبد الرحمان الغرياني – مدونة الفقه المالكي وأدلته مؤسسة الريان بيروت ط 2006 ج4 ص 660 .

(18) سورة الأعراف / 157 –

(19) سورة البقرة / 195.

(20) فتح الباري – لابن حجر العسقلاني ج1 ص38 –

(21) أبو داود حديث رقم 3679

(21) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج 34 ص 2043

(23) سبل السلام ج4 ص51.

(24) سنن أبي داود ج4 ص205

المخدرات وآثارها السلبية على جسم الإنسان

الأستاذ عبد العالي حمدي
إمام أستاذ بولاية تمنراست

إن هذا الموضوع هو من أعقد المواضيع الجديرة بالتبيان والدراسة في حياة الإنسان ألا وهو موضوع المخدرات الذي ارتمى في أحضانه الصغير والكبير المرأة والرجل بعلم أو بغير علم لمضاره ومخلفاته الخطيرة على مستوى صحة الإنسان وعقله وجسمه وعلى ماله ودينه وعرضه وعلى مستوى جميع مصالحه التي ينبغي له حفظها وعدم المساس بها، فالعالم اليوم يتطور ويتقدم وفي الوقت نفسه يحمل هذا التطور في طياته بذور التخلف والتدهور فمتى تغلب أحدهما على الآخر كان له القول الفصل في تحديد اتجاهات العالم، إلا أن التقدم حاليا أصبح حديث الناس وأصبح البحث عن اكتشاف شيء جديد يشغل بال الجميع. ولكن دون مراعاة ما هو أصلح للإنسان فيه من جهة عقله وفكره ودينه، المهم التقدم سواء إلى الأفضل أو غير الأفضل، وباتت البشرية تترقب ماذا سيأتي بعد الغد من مفاجآت وأخذت تلتفت ذات اليمين وذات الشمال، حتى وجد الناس أنفسهم في وسط من ركام التناقضات، وهذا الكلام ليس استخفافا بما اكتشفه العقل البشري في جميع المجالات وإنما هو دعوة إلى جعل العقل والعلم يقفان على أعمدتهما الصحيحة المتينة دعوة إلى رفض أشلاء الحضارة التي تلحق بالعلم تعثرات وهزات لا قبل له بمقوماتها دعوة إلى تطبيق نتائج العلم التي تخدم الإنسان لوقايته وإنقاذه مما قد يصاب به في جسمه أو عقله أو ماله أو واقعه.

إننا نرى من الناس من يستيقظ ويسعى ليتعلق بطرف حبل النجاة مستغيثا بربان السفينة أن يمهله رويدا ومن الناس من

يتناعس زعما منه أنه ليس في الإمكان الخروج مما هو عليه فيسرع وراء الأشياء التي تفقده الشعور والإحساس بواقعه الذي أوقع نفسه فيه وهذا الإنسان يصير غرقه محتوما ويصبح إنقاذه صعبا وعند ئذ يصير شرا على نفسه وعلى غيره، ولكن هذا لا ينفي حتما الأمل في انتصار قوى الخير على قوى الشر حينما يكون الربان بارعا في إخراج سفينته من وسط الأمواج المتلاطمة لإنقاذ مايمكن إنقاذه وبهذا الأمل تعود الحياة الخيرة تضيء بنورها على العالم الآخر عالم الإنسانية الحقيقية عالم مبني على قواعد لا تتزعزع من العواطف ولا تتآكل بفعل الزواحف.

هكذا نتصور مجتمعنا كيف يغط في مناهي الله سبحانه ومحرماته ومن مناهيه طبعا الاقتراب من المخدرات أقول الاقتراب قبل التعاطي والاقتراب من المخدرات من بين الكبائر والرذائل التي تنتهي بالإنسان إلى الهاوية لأن المخدرات آفة تقتل ببطئ، تقتل الفضيلة وتحيي الرذيلة تغتال الضمير وتأتي على الجسد فتهلكه وتفتك به وكل ذلك في تأن وتوأدة بين أحضان النشوة المتوهمة ولذلك فلقد رأيت أن أساهم بما نراه إيجابيا في بيان المخاطر التي تترصدنا جميعا إن لم يوضع لها حد وخصوصا أن هناك من يزعم زعما باطلا أن الأديان بما في ذلك الإسلام لم يحرم المخدرات و لم ينه عن استعمالها، ولقد تربع الإسلام على رأس كل التشريعات الاجتماعية والنظريات الوضعية بما قدمه من تشريع في هذا المجال سواء في قواعد الوقاية من هذه الآفة وغيرها، والإسلام يدعو ويعمل إلى الوقاية مما يضر أو يسيء إلى الإنسان بل و لم يترك ثغرة للأمراض النفسية أو الاجتماعية أو الجسمية لتجد الثغرة المناسبة طريقا إلى الإنسان مما يؤدي إلى صعوبة العلاج.

و في الإسلام قواعد في قمة الوقاية الطبية وإن أحد هذه الموضوعات التي تناولها الإسلام في طبه الوقائي – موضوع المخدرات – وسأحاول تبيان مخاطره على الإنسان وتبقى الجوانب الطبية والأمنية ولكل هذه الجوانب رجالها والله المستعان.

تعريف المخدرات: تعرف المخدرات بأنها من السموم وتعرف عليها الإنسان عبر العصور الماضية عندما اكتشف بعض الخصائص في مجموعة من النباتات كالخشخاش والقنب الهندي حيث وجد فيها ما يزعم أنه يخفف عنه آلامه أو وجد فيهما ما يثير نشوته.

والمخدرات نوعان:

– مخدرات طبيعية

– ومخدرات اصطناعية.

ويشكل حيازة المخدرات أو صنعها أو تسويقها أو حملها أو تناولها يشكل جريمة يعاقب عليها القانون في جل دول العالم إن لم نقل كلها، ولكن مع هذا التشريع المضيف في استعمالها فقد انتشرت انتشارا واسعا سواء في دول العالم الغربي أو غيره حتى العالم الإسلامي الذي لم تنج دولة من تبعات هذه الآفة رغم ما يربطها من رباط عقائدي سلوكي وروحي ويرجع هذا الانتشار إلى سببين اثنين:

أ– أن المخدرات تشكل موردا ماليا ضخما، وبعبارة أخرى المخدرات شيء خفيف الوزن غالي الثمن.

ب – سهولة إخفائها عند تهريبها وكثرة الطلب عليها لذلك أصبح تهريب المخدرات الشغل الشاغل للشرطة الدولية والجمارك في كل دول العالم بعد أن أصبحت المخدرات من أخطر الأمراض التي تأكل جسم المجتمع الإنساني وتهدد كيانه بالأمراض والأوجاع المختلفة.

أنواع المخدرات وأثارها: تنقسم المخدرات كما سبق إلى مخدرات طبيعية وأخرى اصطناعية والمخدرات الطبيعية المتداولة في البلاد العربية.

أ– الأفيون: ويستخرج الأفيون من نبات الخشخاش الذي يزرع في عدة مناطق من العالم ويشمل على مواد ملونة ومواد مهيجة وتأتي أغلبية إنتاج الأفيون من دول آسيا والصين وباكستان وأفغانستان وإيران وتايلاندا ويستهلك معظمه في مناطق الإنتاج كما يصدر جزء منه إلى الدول الأخرى عن طريق منظمات خاصة متخصصة في تهريب المخدرات، ويستعمل هذا المخدر مثل القهوة بالاستحلاب.

– بطريق التبلع أو الحقن بعد إذابته في الماء الدافئ.

– بطريق التدخيـن.

ويؤدي استعماله إلى مضاعفات تفصيلها يرجع إلى الأطباء.

ب– الكوكايين: ويستخرج من شجرة الكوكا الموجودة في بعض المناطق المرتفعة بأمريكا الجنوبية ويستهلك كالأفيون في مناطق إنتاجه والباقي يصدر إلى أمريكا الشمالية التي يجد فيها سوقا رائجة حيث

أن هناك وسائل إعلام خاصة بالإشهار لهذا المخدر وطرق استحضاره وطرق إنتاجه.

ج – القنب: وله أصناف متعددة أشهرها القنب الهندي نسبة إلى الهند التي يكثر فيها ويعرف أيضا في شمال إفريقيا بالكيف ويعرف في نصف الكرة الغربي باسم مار جوانا وفي بعض البلدان العربية يسمى الحشيشة ويستعمل بطرق التدخين والبلع في شكل مادة صلبة أو مسحوقة وهو مادة متميزة وفريدة حيث له قابلية للاثبات في كل مكان من العالم والدول المشهورة بإنتاجه بعد الهند هي: المغرب ولبنان وأمريكا الجنوبية والوسطى وباكستان وأفغانستان وتمول هذه الدول مستعمليه في الأقطار المختلفة زيادة على استهلاكها المحلي. ومضاعفاته على صحة الإنسان خطيرة.

د– القات: ويزرع في اليمن والصومال ويستهلك محليا أي في اليمن والصومال ويتعاطها الإنسان عن طريق المضغ البطيء الطويل في أوقات معينة ويقبل عليه أهل اليمن بشغف كبير، وقد ثبت طبيا أن القات مضر بالصحة لاحتوائه على مادة القاتين المخدرة، وأكد الدكتور هالباج وهو من علماء منظمة الصحة العالمية الأعراض المرضية للقات في تقريره الذي رفعه لمنظمة الصحة العالمية: – وجاء فيه أن مضغ القات يترك آثارا طبية ونفسية خطيرة و هذه أشهر أنواع المخدرات الطبيعية في البلاد العربية.

عوامل إنتشار المخدرات: هناك عدة عوامل ساعدت في انتشار المخدرات عبر العالم – منها أن ظاهرة المخدرات بدأت في الانتشار مع بداية ظهور التنافس الأوروبي على إحتلال الدول الأخرى طمعا في الأموال حيث استغل الأوروبيون تلك الأراضي المحتلة لإنتاج كل ما يكسبهم أموالا وثراء ولو كان ذلك المنتوج مضرا بالإنسانية، وعملت تلك الدول المختلفة على زراعة المخدرات في مناطق واسعة من العالم ولعل أوسع وأكبر مزرعة في هذا المجال تلك التي أقيمت في منطقة الهند الصينية.

وقد قال أحد الكتاب: – إن التجارة وأطماع المال قادت أكثر الحروب التاريخية خزيا وظلما في الشرق الأقصى تلك هي (حروب الأفيون) الحرب المعروفة ففي عام 1796 شنت حكومة الصين تشريعا ينقذ شعبها من الأفيون ويحرم على الناس

تعاطيه والاتجار فيه وكان هذا الأخير تجارة رابحة تصدرها دول أوربا إلى الصين.

وفي عام 1839 صادرت حكومة الصين عشرين ألف صندوق من الأفيون مهربة من بريطانيا وعند ذلك وقعت الواقعة وتحركت عندها المملكة العظمى لتدافع عن تجارتها الرابحة في تلك الدول وتزحف الأساطيل وتجهز الجيوش لتضرب الصين وتحتل جزيرة هونج كونج وتنتعش بعد ذلك شركات بيع المخدرات البريطانية بفضل حرب الأفيون وعند هذا النصر سال لعاب الدول الأخرى حيث لم تبق مكتوفة الأيدي مما كاد أن يكون عائقا في تجارتها للمخدرات، كذلك كان لبريطانيا دور في زراعة – القات – ورواجه في اليمن وانتشاره بين الناس هؤلاء الذين وجدوه سهل الاقتناء عندما امتنعت بريطانيا من استيراده بعدما وجدت الأفضل من هذه المادة المتمثل في المخدرات الأخرى.

– كذلك ما كان لظاهرة المخدرات أن تنتشر لولا وجود عامل آخر هو ظاهرة تردي الوازع الديني وضعف الإيمان بالله سبحانه حينا، وانعدامه حينا آخر هذا من جهة.

و من جهة أخرى تولد واقع اجتماعي متناقض في كثير من الحالات جعلت الإنسان يهرب من الواقع الذي تسبب فيه من قريب أو من بعيد يتناول ما يلهه من ذلك الواقع.

– وهناك أيضا أباء يتعاطون المخدرات أمام أبنائهم وهذا التصرف جعل الأبناء ضحية آبائهم ومجتمعهم فأغلبهم كما يقول المربون يتناولون المخدرات لأن آبائهم يتناولونها أمامهم.

وحسب رجال الشرطة الذين يقومون بتحقيقات حول المخدرات فإن علاقة الأطفال بالمخدرات تبدأ عند قيامهم ببيع المخدرات لتحسين مدخولهم الأسري.

كما أن التحكم في علوم الكيمياء ساعد على إنتاج المخدرات الاصطناعية كما جاء في دراسة للمكتب العربي الدولي لشؤون المخدرات.

والملاحظ أنه رغم السعي الذي قامت به أوروبا لتوسيع مزارع المخدرات في آسيا فقد حاولت حصر استهلاكه في مكان الإنتاج إلا أن المخدرات شهدت توسعا حتى في أوروبا وكانت بداية

دخول المخدرات إلى أوروبا الغربية حسب الخبراء سنة 1960 وهو العام الذي كان بداية هجرة اليد العاملة من تركيا إلى أوروبا هؤلاء المصطحبين معهم ما يمكن حمله من المواد المخدرة التي تزرع في أوطانهم.

و مع هذا فلا ينفي أحد أن استعمال المخدرات في أوروبا لم تكن من قبل هذا الظهور وهذا التاريخ ولكن كان بين طبقات اجتماعية معينة ومحدودة.

مكافحة المخدرات: إن انتشار المخدرات بشكل واسع يثير الدهشة بحيث يمكن القول أنه لا يوجد أي بلد لم تلفحه بسمومها، وخطورة المخدرات متضحة للعيان على المجتمع الإنساني، ولعل الإحصاءات السنوية التي تجريها المصالح المختصة تبين لنا بكل وضوح أن ضحايا المخدرات في ازدياد مستمر، وواجب الجميع القيام بعمل شيء تجاه هذه الآفة، إن لم يمكن القضاء عليها ومكافحتها والحد من انتشارها، وكل ذلك يرجع إلى يقظة رجال الجمارك والشرطة اللذان يسهران على متابعة موريديها بالعقوبات القاسية والرادعة على نشرها في المجتمع.

فشل مكافحة المخدرات: ويرجع فشل مكافحة المخدرات وانتشارها رغم توصيد طرق توصيلها إلى الدول والمجتمعات الإنسانية إلى التسهيلات التي تمنحها بعض الدول لمورديها أو مصدريها أو بغض النظر عن بعض الأعمال التي يقوم بها المهربون إما لكون هؤلاء من رجال الأعمال والصناعة أو من الدبلوماسيين وكل ذلك له انعكاس خطير على انتشار المخدرات سيظل يهدد المجتمع الإنساني، ولعل الجانب الخطير في المشكلة هو انتشار المخدرات في الوسط المدرسي وتعاطي هذه السموم بسرية لم يتفطن إليها الأولياء ورجال التربية وهذا ما يستدعي التوعية اللازمة من أجل إلمام التلاميذ بمخاطر المخدرات، فأطفالنا أكبادنا تمشي على الأرض.

حكم الإسلام في المخدرات: أجمع فقهاء الإسلام على حرمة المخدرات، وأفتى الفقهاء الذين ظهرت في عهدهم هذه الآفة وبينوا آثارها السيئة على الإنسان وبيئته ونسله وعرفوا أنها تفوق الخمر في الضرر الذي حرمته النصوص الصريحة الواضحة في كتاب الله وسنة رسول ﷺ.

فقرر العلماء حرمتها وقرروا العقوبة

على تناولها كما قرروا حرمة الاتجار بها وعقوبة المتجرين وقرروا أن استحلالها كاستحلال الخمر وقد جاء في كتبهم أنه يحرم أكل البنج والحشيش والأفيون لأنها مفسدة للعقل وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويجب تعزير آكلها بما يردعه– وقال ابن تيمية: إن فيها من المفاسد ما ليس في الخمر فهي أولى بالتحريم ومن استحلها وزعم أنها حلال فانه يستتاب فان تاب وإلا قتل مرتدا لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، وقال تلميذه ابن قيم الجوزية: يدخل في الخمر كل مسكر مائعا كان أو جامدا عصيرا أو مطبوخا ثم قال واللقمة الملعون لقمة الفسق والفجور التي تحرك القلب الساكن إلى أخبث الأماكن ويعني باللقمة الملعونة الحشيش هذه اللقمة التي تذهب بنخوة الرجال وبالمعاني الفاضلة في الإنسان وتجعله غير وفيّ إذا عاهد وغير أمين إذا أوعد وغير صادق إذا حدّث تُميت فيه الشعور بالمسؤولية والشعور بالكرامات ويصبح بذلك عضوا غير صالح في المجتمع الفاضل بل عضوا فاسدا، ومن أوجب الواجبات العمل على ردعه ووقاية المجتمع من شره وفساده.

– وهناك انحراف آخر في حكم المخدرات حيث أن هناك من يقول بأن الحشيشة وما شابهها لم يحرمها القرآن و لم تحرمها السنة المطهرة أو لم يرد عن الأئمة الأوائل شيئ في تحريمها فهؤلاء ومن يقول مثل قولهم هم من الذين يفترون على الله الكذب أو هم من الذين يقولون على الله بغير علم ومن الذين يعملون على إفساد المجتمع الإنساني كما يقول فضيلة العلامة الإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الأزهر: أنهم من الذين يعملون على إفساد المجتمع الإسلامي عن طريق دس السم.

1– قال الإمام ابن تيمية: إن الحشيشة حرام يحد متناولها كما يحد شارب الخمر وقال عنها" هذه الحشيشة الملعونة تشتمل على ضرر في دين المرء وعقله وخلقه وطبعه، وتفسد الأمزجة حتى جعلت خلقا كبيرا مجانين، وتورث مهانة آكلها ودناءة نفسه وغير ذلك مالا تورث الخمر ففيها من المفاسد ما ليس في الخمر فهي أولى بالتحريم.

2– وقال الإمام ابن حجر العسقلاني: إن من قال إن الحشيشة لا تسكر وإنما هي مخدر مكابر فإنها تحدث ما تحدثه الخمر من النشوة والطرب " ومن هنا يتبين إن الإسلام حرم تعاطي الحشيش على أي

وضع من الأوضاع وقال إنها من كبائر الذنوب.

3- تحريم الحشيش بالنص أيضا فقد روى الإمام الجليل أحمد بن حنبل ﷺ في مسنده أن النبي ﷺ نهى عن كل مسكر ومقتر.

4- عند الحنفية يحرم أكل الحشيش والبنج والأفيون لأنها مفسدة للعقل وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويجب تعزير آكلها بما يردعه.

قال الدكتور أحمد الشرباصي رحمه الله:

5- هناك آيات يستدل بها على حرمة أكل الحشيش وغيره من المخدرات.

أ - ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة.

ب - قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والفاحشة بمعناها العام هي الإتيان بعمل يستقبحه العقل، وينفر منه الذوق، ويظهر فيه الشطط والخروج عن طريق الاعتدال ولا شك أن تعاطي الحشيش يدخل ضمن هذا الإطار، وسر التحريم كما يتبين مما سبق هو أن الحشيش مضر للصحة والعقل والمال وهذه الجهات الثلاث نعم إلاهية كبرى فكل ما أفسدها أو اعتدى عليها يكون حراما، ويضاف إلى هذا الأضرار الاجتماعية التي تنشأ عن إدمان الحشيش مما يوجب تحريمه ومقاومته.

نقترح لعلاج إنتشار المخدرات مايلي:

1- يجب إزالة الوهم الشائع عند كثير من العامة وهو أن الحشيش وغيره من المخدرات ليسو بحرام فقد قامت الأدلة من القرآن والسنة وأقوال الفقهاء على تحريمه ولابد من إثارة الوعي الديني الصحيح فيما يتعلق بالمخدرات.

2- تشديد العقوبة على المتجرين في هذه المخدرات والضرب على أيديهم بحزم وصرامة.

3- إحكام الرقابة على المنافذ والثغرات التي تتسرب منها المخدرات (الحدود) وكذا أماكن زرعها بالداخل.

4- مقاومة هذا المخدر في منبته وبيئته التي يصدر منها وقد بات معروفا عن بعض البلدان إنتاج المخدرات وتصديرها للبيع في أماكن أخرى.

5- يجب القيام بحملة واسعة النطاق ومنظمة الخطوات لإطلاع طبقات الأمة

على المضار الصحية والمادية ويشترك في هذه الحملة العلماء والأطباء، ورجال الاجتماع كذلك المسجد والمدرسة والصحافة والإذاعة وغيرها من وسائل الدعاية والإعلام والتوجيه.

6- الإسراع بإنشاء المصحات التي يعالج فيها ضحايا المخدرات لأن هؤلاء قد أصبحوا مرضى وقد تحكم فيهم الداء فيجب أن يجدوا حكيم العلاج وناجع الدواء ويجب أن نعلم أن هؤلاء المدمنين هم أحرص الناس على تطلب هذا المخدر والبحث عنه ودفع الثمن فيها مهما كان مرتفعا فإذا عولجوا نكون قد قضينا على الجانب المهم في تعاطي هذا الوباء الفتاك.

وبذلك تكون جريمتهم مضاعفة جريمة إفساد المجتمع وجريمة الافتراء على الله وجريمة استخدام الدين في الشهوات والهوى وإفساد المسلمين، ثم يقول فضيلة الإمام الأكبر: نعم لم يرد في القرآن ولا في أقوال الرسول ﷺ ولا في أقوال الأئمة المتقدمين شيء خاص بتلك المواد لا في حليتها ولا في حرمتها، لأنها لم تكن معروفة في زمنهم وإنما ظهرت كما قال ابن تيمية فيما بين المائة السادسة والمائة السابعة من الهجرة حينما ظهرت دولة التتار، ثم يقول وإذا كانت قواعد التشريع في الإسلام معروفة وأن تحريم الخمر ليس تعبديا وإنما كان محرما لما فيه من الضرر كانت تلك المواد ولاشك محرمة في نظر الإسلام وكان تحريمها من نوع تحريم الخمر إن لم يكن أشد .إ هـ

الخاتمـــة:

وفي الأخير نقول أن المخدرات رجس من عمل الشيطان تقضي على الإنسان من حيث لم يشعر كما قال القائل:

يقضى على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

فتقضي عليه المخدرات من حيث لا يعلم لأنه يراها مسكّنة لأوجاعه ومهدئة لأعصابه ومجلبة لسعادته وهي بالعكس عدوه القاتل الفتاك.

فتقضي على ماله وتقضي على علاقاته الاجتماعية ويصير بعيدا عن الناس وغير اجتماعي يصول ويجول وغير إرادي في تصرفاته بحثا عنها لتهدي من قلقه.

والمخدرات وحرب الأفيون: نقول أنها مازالت مستمرة رغم أنها بدأت

وكانت بالصين إلا أنها اليوم وفي عصر العولمة والإعلام حيث أصبح العالم كالقرية الواحدة تخطى شرها إلينا فهذه الحرب هي معلنة أمامنا وليس أمام الجميع إلا خوضها فإن جنح أهل المخدرات وأهل تجارتها إلى ترويجها فما على أولى الأمر والأمن إلا أن يجنحوا إلى محاربتها – فإن جنحوا للحرب فاجنح لها حتى تحفظ الأمة من ويلاتها لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ الأنفال: ٢٤.

الاختلاف في معنى الكلالة

الدكتورة نصيرة دهينة
كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر

الكلالة مصطلح من أهم مصطلحات علم الفرائض، ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في آيات المواريث في سورة النساء مرتين، وذلك بمناسبة الكلام عن ميراث الإخوة والأخوات .

وقد اختلف العلماء في تحديد معنى الكلالة على قولين:

– **الأول**: الكلالة من لا ولد له.

والثاني: الكلالة من لا ولد له ولا والد .

لكن هل الولد الذي يحجب الإخوة والأخوات هو الابن وابن الابن فقط أم يشمل البنت أيضا ؟

وإذا نظرنا إلى من يقول بأن الكلالة من لا ولد له ولا والد، تساءلنا أيضا عن الوالد الذي يحجب الإخوة والأخوات هل هو الأب فقط أَم الأم والجد أيضا ؟

وهل الكلالة صفة للمورث أم صفة للورثة ؟

أولا: الكلالة في القرآن الكريم:

ورد لفظ الكلالة في القرآن الكريم في آيات المواريث في سورة النساء مرتين :

آية الكلالة الأولى

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ النساء: ١٢ .

نزلت هذه الآية في بيان ميراث

الإخوة والأخوات لأم بدليل قراءة سعد بن أبي وقاص .

فقد جاء في السنن الكبرى أن سعدا كان يقرأها: ((**وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت من أم**)) .

وقال في غاية الإيجاز والتقريب: ((أجمعوا على أنها نزلت في أولاد الأم، ويدل عليه قراءة ابن مسعود وسعد بن أبي وقاص ﷺ: (وله أخ أو أخت من أم) والقراءة الشاذة كالخبر الصحيح في الاحتجاج، إذ مثل ذلك لا يكون إلا توقيفا، ولأن عدم التواتر إنما ينفي خصوص القرآنية دون عدم الخبرية، ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم ...)).

والإخوة لأم هم إخوة الميت من أمه ويسمون ببني الأخياف، والأخياف: الأخلاط فهم من أخلاط الرجال وليسوا من رجل واحد، سموا بذلك تشبيها لهم بالفرس الأخيف .

وقد سميت آية الكلالة الأولى بآية الشتاء لأنها نزلت في فصل الشتاء .

آية الكلالة الثانية

قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ النساء: ١٧٦ .

وقت نزول الآية

ثبت في الصحيح أن البراء بن عازب ﷺ قال: ((آخر آية نزلت خاتمة سورة النساء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾.

سبب نزول الآية

سبب نزول الآية الكريمة قصة جابر ﷺ لما مرض فعاده النبي ﷺ، فسأله عن ميراث أخواته السبع.

عن جابر بن عبد الله قال: [اشتكيت وعندي سبع أخوات فدخل علي رسول الله ﷺ فنفخ في وجهي فأفقت، فقلت: يا رسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلث ؟ قال: أحسن .قلت: الشطر ؟ قال: أحسن .ثم خرج وتركني، فقال: يا جابر لا أراك ميتا من وجعك هذا، وإن الله قد أنزل

فبين الذي لأخواتك، فجعل لهن الثلثين .قال: وكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية فيّ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ .

المكان الذي نزلت فيه الآية

اختلف في المكان الذي نزلت فيه الآية على قولين :

– قال جابر بن عبد الله ﷺ: نزلت في المدينة .

– وقال آخرون: أنزلت في مسير كان فيه رسول الله ﷺوأصحابه .

فعن إبن سيرين قال: نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ والنبي في مسير له وإلى جنبه حذيفة بن اليمان، فبلغها النبي ﷺ حذيفة وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير خلفه، فلما استخلف عمر سأل عنها حذيفة ورجا أن يكون عنده تفسيرها، فقال له حذيفة: والله إنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملني أن أحدثك فيها بما لم أحدثك يومئذ، فقال عمر: لم أرد هذا رحمك الله.

وهذه الآية نزلت في بيان ميراث الإخوة والأخوات لأبوين أو لأب، وتعرف بآية الصيف لأنها نزلت في فصل الصيف .

والإخوة الأشقاء يسمون بني الأعيان لأنهم من عين واحدة، أي من أب وأم واحدة ،وهذه الأخوة التي تجمعهم تسمى المعاينة.

أما الإخوة لأب فيسمون بني العلات سموا بذلك لأن أمّ كل واحد منهم لم تَعِلَّ: أي لم تسقها لبن رضاعها، وبنو العلات أولاد الرجل من نسوة شتى (13)،ومنه قول النبي ﷺ ((أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات)) .

ثانيا: الكلالة عند أهل اللغة

اختلف أهل اللغة في معنى الكلالة على أقوال :

– الكلالة: الرجل الذي لا ولد له ولا والد، قاله صاحب العين .

– وقيل: الكلالة ما لم يكن لحّا من القرابة فهو كلالة، يقال: ابن عمي لحا وهو ابن عمي كلالة، إذا لم يكن لحا وكان رجلا من العشيرة .

– وقال الفراء: الكلالة من القرابة ما خلا الوالد والولد، سموا كلالة لاستدارتهم

بنسب الميت الأقرب فالأقرب، من تكلله النسب إذا استدار به .

– وقيل الكلالة من سقط عنه طرفاه، وهما أبوه وولده، فصار كلاّ وكلالة، أي عيالا على الأصل يقول: سقط من الطرفين فصار عيالا عليهم .

– وقيل الكلالة: من تكلل نسبه بنسبك، كابن العم وشبهه .

– وقيل الكلالة: مصدر من تكلله النسب أي تطرفه، كأنه أخذ طرفين من جهة الوالد والولد، وليس له منهما أحد فسمي بالمصدر.

– والعرب تقول لم يرثه كلالة، أي لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحقاق، قال الفرزدق:

ورثتم قناة الملك غير كلالة عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

– وكلت الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت .

– وقيل الكلالة مشتقة من الإكليل لأن الإنسان ينزل منه أبناؤه فهم تحته، ولذلك يقول العلماء: الابن وإن سفل، وينزل من آبائه ولذلك يقولون :الأب وإن علا فهم فوقه، وإخوته حوله مثل الأجنحة عن يمينه وشماله فأشبه الإكليل .

– وقيل الكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو ذهاب القوة من الإعياء، قال الأعشى :

فآليت لا أرثي لها من كلالة
ولا من حفى حتى تلاقى محمدا

فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد .

– والكلالة مصدر كلّ يكل كلالا وكلولا وكلالة، والكَلّ الثقل والعيال، قال تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ النحل: ٧٦، أي عيال، وأصبح فلان مكلا إذا صار ذوو قرابته كلا عليه أي عيالا .

– قال في نهاية الهداية إلى تحرير الكفاية:" وفي مدلولها لغة ثلاثة عشر قولا :

أحدها: جميع القرابات من قَرُبَ منهم ومن بَعُدَ .

ثانيها: كل وارث من القرابة .

ثالثها: قرابة الرجل خلا والده وولده .

رابعها: بنو الأعمام الأباعد .

خامسها: قرابات الأم كما أن العصبة

قرابات الأب .

سادسها: البعيد من القرابة يقال هو ابن عمه لحًا: أي قريب، وابن عمه كلالة، أي بعيد، ومنه كلت الرحم تباعدت، وكل السيف بعد القطع .

سابعها: اسم لما عدا الأبوين والأخ، حكاه الراغب عن قطرب، ثم قال وليس بشيء .

ثامنها: كل من لم يرثه أب أو ابن أو أخ .

تاسعها: اسم للميت الذي ليس له ولد ولا والد .

عاشرها: اسم للميت الذي لا ولد له ولا والد ولورثته .

حادي عشرها: اسم للمال الذي لا يرثه ولد ولا والد .

ثاني عشرها: اسم الفريضة التي ليس فيها ولد ولا ولد ابن .

ثالث عشرها: اطلاقها بالاشتراك على من لم يترك ولدا ولا والدا، وعلى من ليس بولد ولا والد من الورثة، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد، ومنه قولهم: ما ورث المجد عن كلالة .

قال: وهذه الأقوال لا تجري كلها في المراد بها في التنزيل بل يجري منه ثلاثة أو أربعة ".

ثالثا: اختلاف السلف في الكلالة

اختلف الصحابة ومن بعدهم في الكلالة على أقوال يمكن إرجاعها إلى أربعة هي:

القول الأول: الكلالة اسم للورثة إذا لم يكن فيهم ولد ولا والد، وهذا القول مروي عن أبي بكر وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت ﷺ وبه قال الزهري ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأهل العراق وجمهور العلماء .

حجة أصحاب هذا القول

أ- قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، أي يستفتونك عن الكلالة، وإنما يستقيم الاستفتاء عن ورثة ليس فيهم ولد ولا والد، فأما إذا سئل عن ميت ليس له ولد ولا والد، لا يفهم بهذا السؤال شيء .

ب- حديث جابر يفسر أن الكلالة هو الوارث، وقد دل على صحة ذلك قول جابر: ((يا رسول الله كيف الميراث

؟ إنما يرثني كلالة ...)) ، فجعل الوارث هو الكلالة، و لم يكن لجابر يومئذ ولد ولا والد .

ج- ثبت بالسنة أيضا أن المراد بالكلالة الورثة في قوله ﷺ: ((من ترك كلا وعيالا فعلي نفقته)) .

القول الثاني: الكلالة اسم للميت إذا لم يكن له ولد ولا والد، وهو قول لابن عباس، وقول أبي عبيدة معمر بن المثنى وجابر بن زيد والحسن وقتادة والنخعي وأهل البصرة وأهل المدينة وأهل الكوفة .

حجة أصحاب هذا القول

- قوله تعالى: " وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة "أي يورث في حال ما يكون كلالة، فهو نصب على الحال .

القول الثالث: الكلالة اسم للفريضة التي لم يرث فيها ولد ولا والد .

القول الرابع: الوقف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب، فقد كان يستشكل الكلالة كثيرا، وري عنه في ذلك أقوال كثيرة منها :

- أنه رضي الله عنه خطب يوم الجمعة فذكر نبي الله ﷺ وذكر أبا بكر ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئا أهم عندي من الكلالة، ما راجعت رسول الله في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: ((يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء، وإني إن أعش أقضي فيها بقضية يقضي بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن)) .

- وعن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن الكلالة فقال له رسول الله: ((يكفيك من ذلك الآية التي نزلت في الصيف آخر سورة النساء)) .

- وعن طاووس أن عمر أمر حفصة أن تسأل النبي ﷺ فأمهلته حتى إذا لبس ثيابه فسألته، فأمَلَّها عليها في كتف فقال: عمر أمرك بهذا، ما أظنه يفهمها، أو لم تكفه آية الصيف ؟

فأتيت بها عمر فقرأها فلما قرأ: "يبين الله لكم أن تضلوا " قال: اللهم من بينت له فلم تبين لي.

- وروي عن عمر أنه قال: ثلاث لأن يكون النبي ﷺ بينهن لنا أحب إلي من الدنيا وما فيها: الخلافة والكلالة والربا.

– وعن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب كتب في الجد والكلالة كتابا فمكث يستخير الله يقول: اللهم إن علمت فيه خيرا فأمضه، حتى إذا طعن دعا بالكتاب فمحي فلم يدر أحد ما كان فيه، فقال: إني كتبت في الجد والكلالة كتابا وكنت أستخير الله فيه، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه.

قال الجصاص: (فهذه الأخبار التي ذكرنا تدل على أنه لم يقطع فيها بشيء وأن معناها والمراد بها كان ملتبسا عليه).

وقال الطحاوي: (فكان جميع ما في هذه الآثار ترك المسؤول عنها الجواب ما هي تورعا عن القول في كتاب الله جل جلاله بم لم يوقف على حقيقته من عند الله حتى مات عمر على ذلك) .

وخلاصة القول: إن الكلالة في القرآن الكريم كلالتان: إحداهما خاصة بميراث الإخوة والأخوات لأم، والكلالة فيها من لا يرث مع الوالد وإن علا ،ولا مع الولد وإن سفل، فلا ابن ولا بنت ولا أب ولا جد، وهي الآية 12 من سورة النساء .

والثانية :خاصة بميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب، والكلالة فيها من لا يرث مع الابن وابن الابن ولا مع الأب، ويرث مع البنت وبنت الابن والجد،وهي الآية 176 من سورة النساء.

الهوامش

(1)."يورث " قرئ بفتح الراء وكسرها وقرئ بتشديدها مكسورة ، فإذا كان الفتح فذلك عائد إلى الميت ويكون " كلالة " حالا من الضمير في يورث ، وإذا قرئت بالكسر فمعناه عائد إلى الورثة ويكون قوله "كلالة " مفعولا يتعدى الفعل إليه، وكذلك بالتشديد ، وإنما فائدته تضعيف الفعل إليه .انظر : ابن العربي ،أحكام القرآن ،دار الكتب العلمية بيروت ،ط 1 (448-447/1) .

(2).البيهقي في السنن الكبرى[كتاب الفرائض/باب فرض الإخوة والأخوات لأم]دار المعرفة بيروت1413هـ/1992م،(231/6).

(3).عطاء الله الأزهري ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر (44/و-ظ) .

(4).الخَيَف : مفتوح الياء مصدر من باب تعب ، وهو أن يكون إحدى العينين من الفرس زرقاء والأخرى كحلاء، فالفرس أخيف والناس أخياف أي مختلفون ، ومنه قيل لإخوة الأم أخياف لاختلافهم في نسب الآباء، انظر : الجوهري الصحاح مادة (خيف) دار العلم للملايين ، بيروت ، ط:4/1990م (1359/4) ،وابن منظور ، لسان العرب ، مادة

(خيف) دار إحياء الترث العربي بيروت ،ط :1 /1408هـ1988–م (263/4) .

(5).أخرجه البخاري في صحيحه، دار الهدى، عين مليلة الجزائر (د.ت.ط) [كتاب الفرائض/باب ميراث الأخوات والإخوة] (2479/6) .

(6).ابن العربي ، أحكام القرآن (652/1) .

(7).أخرجه أبو داود في السنن ، دار إحياء السنة النبوية (د.ت.ط) [كتاب الفرائض /باب في الكلالة] (119/3–120)

(8).ابن العربي ، أحكام القرآن (653/1) .

(9).أخرجه عبد الرزاق في المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ،المجلس الإسلامي ، ط1 :1392هـ1972–م(304/10).

(10).انظر : الفيومي ، المصباح المنير ، مكتبة لبنان (د.ت.ط) ص(167–168) والرازي ، مختار الصحاح ، مكتبة لبنان بيروت ، 1987م ، ص (466) .

(11).انظر: الجوهري ، الصحاح ،مرجع سابق (1773/5) والفيومي ، المصباح المنير ، مرجع سابق ، ص (162) .

(12).أخرجه الترمذي في السنن [كتاب الفرائض /باب ما جاء في ميراث الإخوة من الأم والأب]، (416/4) ، والحاكم في المستدرك [كتاب الفرائض] (380/4) .

(13).انظر : الجوهري ، الصحاح (1811/5) ،و الرازي ،مختار الصحاح ص(576)، وابن منظور ، لسان العرب (134/12) .

(14).زكريا الأنصاري ، نهاية الهداية إلى تحرير الكفاية ، تحقيق عبد الرزاق بن أحمد عبد الرزاق ، رسالة دكتوراه ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، (668/2–670) .

(15).الكلوذاني ، التهذيب في الفرائض ، تحقيق راشد الهزاع ، ص (196) ، والقرافي ، الذخيرة ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،ط 1 :1994م (34/13) والسرخسي ، المبسوط ، دار المعرفة بيروت ،ط 2 ،(153/29) ، والنووي / المجموع شرح المهذب ، دار الفكر بيروت ،(89/16–90) .

(16).جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي [كتاب الفرائض] (56/11).

(17).أخرجه أبو داود في السنن [كتاب الفرائض/ باب في ميراث ذوي الأرحام (123/3) .

(18).أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي [كتاب الفرائض] (57/11) .

(19).الحديث وصله القعنبي وابن القاسم عن مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر ، انظر : السيوطي ، تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة (336/1) .

(20).أخرجه عبد الرزاق في المصنف [كتاب الفرائض /باب الكلالة] ، (305/10) .

(21).أخرجه البيهقي في السنن[كتاب الفرائض /باب حجب الإخوة والأخوات من كانوا بالأب والابن وابن الابن](225/6)

(23).أخرجه عبد الرزاق في المصنف [كتاب الفرائض/باب الكلالة] (301/10) .

(24).أحكام القرآن ، دار الكتاب العربي ، بيروت (د.ت.ط) (87/2) .

(25).شرح مشكل الآثار ،[باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله في المراد بالكلالة من هو ؟] مؤسسة الرسالة بيروت ، ط 1: 1415هـ1996–م (227/13) .

المصالحة والعفو

الأستاذ محمد بلقاسم بوعلاتي
إمام بولاية ورقلة

الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته قبل سؤالها، وحضه على تقييدها بالشكر حذرا من زوالها، فقال (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)، أحمده تعالى وهو بالحمد جدير، وأشكره جل وعلا وهو نعم المولى ونعم النصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الموجود فضله وثوابه والمخوف مكره وعقابه، وسع كل شيء رحمة وعلما، وعم العوالم كلها جودا وكرما وحلما، هدانا لطاعته ووعدنا من فضله بجنته:

يا من لـه علم الغيـوب ووصفـه
ســـتر العيوب وكل ذلك سماح
أخفيت ذنب التكرم والتفضل
والرضا أنت الإلـه المنعـم الفتاح

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه من بين خلقه وحبيبه، قطب الواصلين ومنار السالكين:

البدر دونك في حسن وفي شرف
والبحر دونك في خير وفي كرم
أخوك عيسى دعا ميتا فقـام لـــه
وأنت أحييت أجيالا من العدم

فاللهم صل وسلم وأنعم وبارك على هذا النبي الكريم والرسول السيد السند العظيم، وعلى أله وأصحابه أتم الصلاة وأزكى التسليم.

أما بعد: عباد الله إن النصيحة للمسلمين قد تواترت بها الأخبار، وإن الوصية على سنن المتقدمين قد تواترت بها الآثار، فرب غافل ينبهه واعظ ورب راقد يقضه بالوصية لافظ، والوصية غنيمة العاقل، والموعظة تجارة الغافل، فأوصيكم وأياي بتقوى الله أبدا وأن ينهض كل منا لطاعته مجتهدا، هذا واعلموا معاشر المسلمين أن الله عز وجل اقتضت حكمته وشاءت إرادته أن يجعل قوة المسلمين في وحدة

صفهم وتماسك لحمتهم فنهاهم بذلك عن كل ما من شأنه أن يفرق جماعتهم أو يذهب ريحهم فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الأنفال: ٤٦، وحثهم في المقابل على كل عمل من شأنه أن يصون هذه الوحدة أو ينميها، فندبهم إلى إشاعة فضائل المحبة والألفة وتعزيز الروابط وشد الصلات والوشائج بينهم من خلال نشر ثقافة الصلح والعفو في المجتمع.

إن عناية الإسلام بهذا الجانب المشرق من جوانب الإصلاح والعفو كانت عناية منقطعة النظير ولا ينكرها إلا جاحد، فلو تأملنا آيات الذكر الحكيم لوجدناها طافحة بالعبارات الصريحة والإشارات الواضحة الدالة على تبني الكتاب الكريم لهذه المعاني، فقد ندب الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصلح والعفو بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ الحجر:٨٥، وقيل فيه هو الرضا بلا عتب، واعف عفوا حسنا وقال أيضا: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ الأعراف: ١٩٩، يقول الإمام القرطبي: خذ العفو دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين، وقال أيضا في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ آل عمران: ١٣٤، قال: العفو عن الناس أحد ضروب فعل الخير، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ الشورى: ٤٠، قال ابن عباس من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو فأجره على الله، وقال مقاتل فكان العفو من الأعمال الصالحة، وقال عز من قائل: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ النساء:١٢٨، يقول الإمام القرطبي: الصلح خير لفظ عام مطلق، يقتضي بأن الصلح الحقيقي هو الذي تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف على الإطلاق.

وخير: أي خير من التفرقة فإن التمادي على الخلاف والشحناء والمباغظة هي قواعد الشر.

وفي السنة النبوية المطهرة فإن النصوص الواردة كثيرة كثرة الأفعال المعضدة لها من ذلك ما روي عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) وما روي

عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان أجره على الله فليدخل الجنة، فيقال من ذا الذي أجره على الله ؟ فيقوم العافون عن الناس فيدخلون الجنة بغير حساب) كذلك ما رواه أبو الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى قال: (إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة).

فالإصلاح والتوفيق بين الناس فريضة شرعية مأمور بها ومرغب فيها، مندرجة ضمن فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما يعود به من نفع على عموم الأمة وأفرادها، فهو مجلبة للأمن والاستقرار، مدعاة للألفة والمحبة وعنوان الوحدة وتماسك الصفوف، وتجسيد لصدق الأخوة كما يراها الإسلام، فالانتماء إلى الجماعة شعور فطري نبيل، أيده الدين ووجهه الوجهة الصالحة للفرد والجماعة وجعل الشذوذ عن الجماعة شذوذا إلى النار، وطبيعة الجماعة المؤمنة أن تكون عاملة في سبيل رفعة حياتها وإعلاء كلمة ربها وإظهار دينه وتلك هي رسالتها المتفقة مع فطرتها التي فطرها الله عليها قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ الروم: ٣٠ – ٣٢ فدين الفطرة لم يرتض لهذا الانتماء إلى الجماعة أن يظل مجرد إحساس باطني لا تظهر أثاره في الأعمال ولا تبرز نتيجته إلى الحياة وإنما يطلب من المؤمن أن يحوله إلى سلوك نافع لأمته ومجتمعه وإلى طاقات محركة للجماعة، مساندة لها تدفعها لبلوغ الأهداف، في صورة تعاون الأفراد على جلب المنافع ودفع المضار، والارتقاء بالحياة، وبقدر ما كانت دعوة الإسلام إلى التضامن والتعاون بقدر ما كان نهيه عن التفرق والتنازع والتشرذم، وتشتيت الجهود ومعاكسة بعضها لبعض مع بيان النتيجة المترتبة على ذلك بتعرض الأمة لتطاول الأعداء عليها وكذا يكون أبناء الأمة في ظل الجماعة المسلمة كل منهم حارس أمين في موضعه يبذل الجهد في سبيل كفايته وكفالة جماعته.

فقد بات واضحا أن من أخطر من ما

يواجه الأمم والشعوب ويهدد مصيرها، أن تتسرب روح الاختلاف والتناحر إلى أفرادها، ويعيش كل واحد منهم مثخنا بجراح الأحقاد والضغائن التي تثقل كاهل جسمه، وتقض مضجعه، وتؤرق جفنيه، وبتلك الفرقة والتطاحن تصاب الشعوب بتفكك روابطها الاجتماعية وتخاذل قواها البنائية والدفاعية، وتأكل بناها التحتية، ولئلا يصاب المجتمع الإسلامي بهزات داخلية وخارجية كانت مهمة المسلم، التعاون مع إخوانه في الحياة باستفراغ الجهد وبذل الوسع ما أمكن، من أجل ردم هوة الخلاف واجتثاث منابت الفرقة والاختلاف، ودك معاقل الفتنة وطمس معالم الشقاق والنزاع بإفشاء روح التسامح والإخاء، والحلم والعفو الإغضاء، مستنيرا في ذلك بهدي سيد الأنبياء حين وقف أمامه فحول الكفر يوم فتح مكة مطرقة أعناقها خاضعة ذليلة ورغم ذلك قال اذهبوا فأنتم الطلقاء، بل ورأى هبار بن الأسود مسقط جنين ابنته زينب هاربا منه فقال إلى أين يا هبار فقال فرارا منك يا محمد قال أرجع فقد عفوت عنك، وغيرها كثير. بهذا يكون المسلم جديرا بالحياة ذاتها وكفؤا لتحمل تبعاتها فالروح التعاونية القائمة على الحلم والصفح وكظم الغيظ هي القادرة بعون الله على أن تصنع شخصية المسلم المنتصرة على الأنانية والفردية، إنها الفجر الجديد الذي ترقبه الإنسانية عموما والشعب الجزائري – خصوصا هذه الأيام – ليعيد لها فجرها التليد، ويجدد العهد مع التنمية والاستقرار.

إن المصالحة هي تصعيد كل عمل من الأعمال الفردية إلى جماعية واجتماعية، ليعيش الإنسان في يقظة وجدانية حية قوية، وفي يقظة حسية متطورة شاملة وبذلك تتسم أعماله بالخير والخلق العظيم والسمو والجمال والكمال، فهل لأمتنا أن تقبل على حاضرها فتبنيه بروح الإسلام وهل لكل فرد أن يساهم في العمل على رفع هذا البناء حتى يبلغ مرتقاه.

وكما قال الشاعر :

فإن ترغبوا في الصلح فالصلح صالح
وإن يجنحوا للسلم فالسلم أسلم

وكما قال آخر:

ولو تابعوا قول الإلـه وأمـره
وقالوا بأن الصلح للخلق أصلح

فيا أيتها النفوس المتعاونة والمتصالحة إنكم أنتم وحدكم على الحق وبكم وحدكم تسعد الحياة ويستقر هذا الوطن وتدفع عجلة التنمية من خلال ميثاق السلم والمصالحة الوطنية النابع من صميم ديننا والمتوافق مع مقاصده السامية وقيمه الراقية فاللهم وفقنا للخيرات وألهمنا مراشد أمورنا.

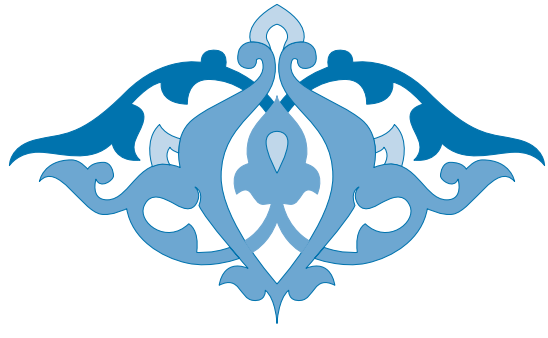

المسك والعَنْبَر في مواقف الصِّدِّيق الأكبر

الدكتور رشيد كُهُوسْ
كاتب وباحث– جامعة محمد الأول وجدة

لقد كان لخليفة سيدنا رسول الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه مواقف ثبات في الإسلام تنشق منها الأرض وتخر لها الجبال، وتشرئب إليها الأعناق، ويتعجب منها العظماء...وهي أكبر دليل على حبه الشديد للحبيب ﷺ.

يحبهم كل من صفت سريرته
ويكرههم العميان والعـور

ذكر الإمام ابن سعد في طبقاته والإمام ابن الجوزي في صفة الصفوة أن الصديق الأكبر رضي الله عنه شهد مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميع المشاهد، ولم يفته منها مشهد واحد، وثبت معه يوم أحد حين انهزم الناس، ودفع إليه النبي صلى الله ﷺ رايته يوم تبوك وكانت سوداء.

قال الزمخشري رحمه الله: "إنه –أي أبو بكر الصديق– كان مضافا لرسول الله ﷺ إلى الأبد، فإنه صحبه صغيرا، وأنفق ماله كبيرا، وحمله إلى المدينة براحلته وزاده، ولم يزل ينفق عليه ماله في حياته، وزوجه ابنته، ولم يزل ملازما له سفرا وحضرا، فلما توفي ﷺ دفنه في حجرة السيدة عائشة أحب النساء إلى رسول الله ﷺ".

قال ابن كثير رحمه الله:"ولم يختلف أهل السير في أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في مشهد من المشاهد كلها".

فمع المشاهد التي شهدها الصديق أبو بكر رضي الله عنه، أذكرها باختصار لنضعها في ميزان المحبة الصادقة للجناب الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

الإسراء والمعراج:

وكان للصديق رضي الله عنه موقف مشهور من حادثة الإسراء والمعراج، حيث صدق به دون نقاش، فأنزل الله تعالى فيه مدحاً في القرآن: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ الزمر: ٣٣.

لما رجع النبي ﷺ من الإسراء والمعراج حدث قومه بذلك فكذبوه، وذهب الناس إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا له: "هل لك في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة".

قال لهم: أوقد قال، إن كان قال فقد صدق وأصدقه في أبعد من ذلك "فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم! قال: يا نبي الله فصفه لي...فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقت أشهد أنك رسول الله كلما وصف له منه شيئا قال: صدقت أشهد أنك رسول الله حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق، فيومئذ سماه الصديق".

هذا البرهان الأول لحبه الشديد للحبيب ﷺ.

يوم الهجرة:

لما أذن الله تعالى لحبيبه ﷺ بالهجرة أخبر أبا بكر الصديق بذلك، ففرح أبو بكر رضي الله عنه، وقال وهو يبكي من شدة الفرح:"الصحبة يا رسول الله".

ثم أعلن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه حالة الاستنفار في بيته، فأصبح بيته في حال طوارئ شاملة للتجهيز للرحلة ولمراقبة حركة قريش ورد فعلهم، ولحماية سيدنا رسول ﷺ، وتقديمه نفسه وأهله في سبيله.

"وفي هذه الرحلة المباركة كان أبو بكر الصديق نعم الصديق ونعم الرفيق لرسول الله ﷺ، فإذا به يمشي ساعة أمام سيدنا رسول ﷺ ثم يمشي ساعة خلفه، ويلحظ سيدنا رسول الله ﷺ القلق على صديقه ورفيقه، فسأله عن ذلك فقال: يا رسول الله أذكر الطلب لك من قريش فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي أمامك".

قال الإمام الحسن البصري رضي الله

عنه:"انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلا، فدخل أبو بكر ﷺقبل رسول الله ﷺ، فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية يقي رسول الله ﷺ بنفسه".

فلما دخل الصديق ﷺالغار بدأ يقطع من ثوبه ويسد الثقوب، فلما رآه النبي ﷺ قال له: أقطعت ثيابك يا أبا بكر؟ قال: أخاف من شيء يؤذيك يا رسول الله ﷺ.

ومن هذا الموقف العظيم يتبين لنا أن الصديق ﷺ "أحب النبي ﷺ حبا ملك عليه لُبَّهُ وفؤاده وجوارحه، حتى إنه يتمنى أن يفدي النبي ﷺ بنفسه وولده وماله والناس أجمعين".

أول خطيب في الإسلام:

تقول الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: "يا أبا بكر إنا قليل".

فلم يزل يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل وعشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ضربا شديدا، ووطئ أبو بكر، وضرب ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرفها لوجهه، ونزَّ -أي:وثب- على بطن أبي بكر، ما يعرفُ وجهه من أنفه...".

إنفاقه في سبيل الله:

عن الفاروق عمر بن الخطاب ﷺقال:"أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مني مالاً، فقلت:اليوم أسبق أبا بكر -إن سبقته يوما- فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: "ما أبقيت لأهلك؟"قلت: مثله.

قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: "ما أبقيت لأهلك؟ "قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقك إلى شيء أبدا".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقا على هذه الحادثة:" كان فعل الفاروق ﷺفيما فعله من المنافسة والغبطة مباحا، ولكن حال الصديق ﷺأفضل منه، لأنه خال من المنافسة مطلقا ولا ينظر

إلى غيره".

الصديق أبو بكر ﷺ لا يرى أمامه إلا محبوبه، لا يلتفت إلى غيره... همه سيدنا رسول الله ﷺ بالعشي والإصباح، وفي العسر واليسر، وفي الفرح والقرح، وفي النوم واليقظة، وفي الجهاد والسلم، وفي كل شيء.

في غزوة بدر الكبرى:

كانت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، وكان للصديق أبو بكر ﷺ مواقف رجولية مشهورة، منها استشارة النبي ﷺ للصديق ﷺ في الحرب وقضية الأسرى وغيرها.. فأشار عليه برأي شجاع يدل على حبه الشديد للمصحوب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

في غزوة أحد:

حيث زلزل المسلمون زلزالا شديدا وابتلوا ابتلاء صعبا، فما ثبت مع النبي ﷺ إلا القليل من أصحابه رضي الله عنهم.

وكان الصديق أبو بكر ﷺ ذا حنكة ورأي سديد، وكان ﷺ من جملة الذين نزل فيهم قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران: ١٧٢.

في غزوة بني النضير، وبني المصطلق وفي الخندق، وفي بني قريظة:

كان الصديق الأكبر ﷺ حاضرا في هذه الغزوات حريصا على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومدافعا عنه.

في الحديبية:

كان له موقف شجاع لما أرادت قريش أن تصد المسلمين عن الكعبة قال رضي الله عنه:"يا رسول الله خرجت عامدا لذا البيت لا تريد حربا أو قتل أحد، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه".

كما شارك ﷺ في الحوار الذي كان بين النبي ﷺ وقريش، كما وافق النبي ﷺ في الصلح، رُغم أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كانوا يرون في هذا الصلح إجحافا للمسلمين، لكن الصديق الأكبر ﷺ وافق النبي ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ النجم: ٤.

وفي سيرة ابن هشام أن الفاروق ﷺ أتى النبي ﷺ معلنا معارضته لهذا الصلح وهذه الاتفاقية، وقال لرسول الله ﷺ:

ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وفي رواية: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني.

قلت:أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به.

قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت له: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر للفاروق: الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف أمر الله ولن يضيعه الله".

هكذا كان جواب خليفة رسول الله الصديق أبو بكر ﷺموافقا لجواب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، و لم يكن قد سمع جواب الحبيب عليه الصلاة و السلام، فكان ﷺقلبا وقالبا مع الحبيب ﷺ، نال هذه الموافقة بحبه الشديد للجناب الشريف ﷺ ؛ إذ المحبة تقتضي موافقة المحبوب في كل شيء في السر والجهر، والمنشط والمكره، وهكذا كان الصديق الكبير رضي الله عنه، وبهذه المحبة نال الصديقية والدرجات العلى في مقعد الصدق عند مليك مقتر.

ومضت أيام، وجاء الفتح، فقال سيدنا أبو بكر ﷺمتحدثا عن الفتح العظيم الذي تم في الحديبية بعد تلك الاتفاقية التي أمضاها سيد الخلق وحبيب الحق ﷺ:"ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قَصُرَ رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يَعْجَلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد".

وعلى ذلك فقد كان"الصديق ﷺأَسَدّ الصحابة رأيا وأكملهم عقلا".

في غزوة خيبر وفي نجد وبني فزارة:

كانت للصديق ﷺفي هذه المشاهد مواقف سديدة موافقة لرأي الحبيب ﷺ، سواء في المشورة او الاجتهاد أو غير ذلك.

في عمرة القضاء:

كان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺمن

جملة من ذهب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليعتمروا عمرة القضاء مكان عمرتهم التي صدهم المشركون عنها.

في سرية ذات السلاسل:

في هذه السرية ظهر أن الصديق ﷺ كان ذا مواقف متميزة في بناء الرجال، وتقديرهم واحترامهم، وفي الحفاظ على أعمدة الدين وأسسه كالصلاة والزكاة والصوم...

يوم الفتح:

حيث جهز الصديق ﷺ نفسه ليكون مع الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في هذه المَهَمة الكبرى، وثبت معه ثباتا لا نظير له، ودافع عن حوزة الإسلام أمام أبي سفيان لم يخف في الله لومة لائم.

يوم حنين:

كان ﷺ من الصحابة الذين ثبتوا يوم حنين الذي لحقت فيه بالمسلمين هزيمة أول معركة جعلتهم يفرون من هول الفاجعة، إلا بعض الصحابة يتقدمهم الصديق الأكبر ﷺ صبروا رُغم هول المفاجأة، فاستحقوا بذلك النصر ؛ فنصرهم الله نصرا عزيزا مؤزرا.

فقد كان الصديق الأكبر ثاني اثنين وأول الخلفاء لخاتم الأنبياء محبا حقا للحبيب المصطفى ﷺ ؛ لأن المحبة تعني نصرة الحبيب والثبات معه وتقديم الروح دونه، وهكذا كان ابن أبي قحافة ﷺ في جميع المواقف والمشاهد، نعم المحب لنعم الحبيب.

في الطائف:

في حصار الطائف "وقعت جراحات في أصحاب النبي ﷺ وشهادة، ورفع سيدنا رسول الله ﷺ عن أهل الطائف الحصار ورجع إلى المدينة، وممن استشهد من المسلمين في هذه الغزوة عبد الله بن أبي بكر ﷺ رمي بسهم فتوفي منه بالمدينة بعد وفاة النبي ﷺ".

وعندما "قدم وفد ثقيف للمدينة ليعلنوا إسلامهم فما إن ظهر الوفد قرب المدينة حتى تنافس كل من أبي بكر والمغيرة على أن يكون هو البشير بقدوم الوفد لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفاز الصديق ﷺ بتلك البشارة".

فالمحب دائما يبحث عن كل وسيلة تبشر محبوبه وتفرحه وتدخل السرور على قلبه، وهكذا تسابق الصديق الأكبر ﷺ مع

المغيرة ليبشر محبوبه بطلائع جديدة أتت لتبيع نفسها لله تعالى.

تبوك:

"أعطى الحبيب المصطفى ﷺ لواءه الأعظم إلى أبي بكر رضي الله عنه".وفي هذه الغزوة أنفق الصديق الأكبر رضي الله عنه كل ماله في سبيل الله... وقد مرت معنا تلك القصة التي أراد الفاروق رضي الله عنه أن يسبق الصديق رضي الله عنه بإنفاق نصف ماله.

وها هو الصديق رضي الله عنه يبعثه النبي ﷺ أميرا على الحج سنة تسع هجرية يعلم الناس مناسكهم، وفي وقوفهم وإفاضتهم، ونحرهم ونفرهم، ورميهم للجمرات وسعيهم ...ليمهد الطريق لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، "لأن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة، والحبيب كره حالة المشركين هذه، وأمر الصديق رضي الله عنه يمهد له الطريق حتى لا يرى تلك المناظر، وفي هذه الحادثة نزلت سورة التوبة، وكانت حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه توطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع".

وقد نادى سيدنا أبو بكر رضي الله عنه في الناس أن عهد الأصنام قد ولى وانقضى، وأن شمس الإسلام قد أشرقت فما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى، هكذا انتشر بين قبائل العرب يدعوهم إلى دين العدل والرحمة والمحبة والكرامة، فبعد هذه الجولة الدعوية بدأت القبائل ترسل وفودها معلنة إسلامها.

يوم وفاة الحبيب ﷺ:

لقد لازم سيدنا أبو بكر رضي الله عنه سيدنا رسول الله ﷺ في حله وترحاله، وحضر جميع غزواته، وكان حارسه الشخصي في بدر الكبرى رضي الله عنه. وبلغ من العلم والفضل والتقوى ما رجح به على الأمة جمعاء– رضي الله عنه وأرضاه– فقد كان تالياً لكتاب الله عز وجل، عارفاً بمعانيه، مدركاً لدلالته وأسراره وكنهه، ومن ذلك أنه كان يفتي في زمن سيدنا رسول ﷺ وفي مجلسه. ولما نزل على سيدنا رسول الله ﷺ قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ، بكى سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، ولما قال سيدنا رسول الله ﷺ (إن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده) بكى سيدنا أبو بكر رضي الله عنه لمعرفته أن سيدنا رسول الله ﷺ يخبرهم بقرب أجله.

وأمره سيدنا رسول الله ﷺ أن يصلي

بالمسلمين عند مرضه، وكان الصحابة يعرفون فضله وقدره ومكانته وقربه من سيدنا رسول ﷺ لا ينازعه أحد بين يدي سيدنا رسول الله ﷺ، فقد توفي سيدنا رسول الله ﷺ فاضطربت المدينة وزلزلت بأهلها، وأظلم عليهم نهارها، وهاج الناس وماجوا وافتقدوا أنفسهم، وأصبحوا في أمر مريج حتى إنهم لينكرون موته ﷺ ويستبعدون وقوعه، لكن سيدنا الصديق كان ﷺ أعلمهم بالله وأفهمهم لدينه، وأثبتهم في المحن والشدائد فقد توجه إلى سيدنا رسول الله ﷺ وكشف عن وجهه وقبّله وحزن عليه حزناً شديداً، وقال:"واصفياه واحبياه واخليلاه وانبياه ...طبت حيا وميتا يا رسول الله"، ثم توجه إلى المنبر يعلن للمسلمين حقيقة الوفاة بتلاوته لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾ آل عمران: ١٤٤ ويفسر لهم هذا المفهوم بخطبة (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت). بهذه الروح العالية والفهم الثاقب والثبات المتناهي يعيد للصحابة ﷺ عقولهم، وللتائهين صوابهم، وللحائرين رشدهم.

ولما اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لمناقشة أمر الخلافة توجه أبو بكر إليهم وأجرى عليهم من علمه وفقهه وحواره الجاد ما أزاح به خطراً يهدد كيان الأمة ووحدتها ؛ دعوة لله وحفظاً لدينه وأمته وعباده وبيضة الجماعة. عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ لَمَّا قُبِضَ سيدنا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ الْأَنْصَارُ: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَأَتَاهُمْ عُمَرُ فَقَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَأَيُّكُمْ تَطِيبُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ؟ قَالُوا نَعُوذُ بِاللهِ أَنْ نَتَقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ".

وبعد ذلك قام في الناس خطيبا ليعلن منهجه في الحكم أمام الناس، فوقف فيهم خطيبا وقال لهم:"أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم..فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.. فالقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له..أيها الناس: ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا".

وهكذا أعلى الصديق الأكبر ﷺراية الشورى والعدل والجهاد من بداية عهده، وكأنه يشعر بخطر المرتدين الذين انتشروا في المجتمع الإسلامي انتشار النار في الهشيم بعد وفاة سيدنا رسول الله ﷺ.

وبهذا الدستور اجتمع المسلمون حوله باذلين أموالهم وأنفسهم فداء للدين ولمحبة النبي الأمين ﷺ .

رضي الله عن الصديق الأكبر؛ فقد بذل الغالي والنفيس في سبيل الدعوة إلى دين الإسلام ومحبة الحبيب ﷺ.

وصية سيدنا أبي بكر ﷺلسيدنا عمر رضي الله عنه:

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن ساباط قال: لما حضر أبا بكر الوفاة دعا عمر فقال: اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملا بالنهار لا يقبله بالليل، وعملا بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا، وحق لميزان لا يكون له إلا الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل، وحق لميزان لا يكون فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا.

وإن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم قلت إني أخاف أن لا ألحق بهم، وأن الله ذكر أهل النار وذكرهم بأسوأ أعمالهم ورد عليهم أحسنها، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء ليكون العبد راغبا راهبا لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمته. فإن أنت حفظت وصيتي فلا يك غائب أحب إليك من الموت ولست تعجزه".

توفي ﷺلثمان خلين من جمادى الآخرة وهو ابن ثلاث وستين سنة. وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر ونصف.

لقد كان الصديق الأكبر ﷺمقتفيا لأثر النبي ﷺ في كل صغيرة وكبيرة حتى في مماته، لما قرب أجله بدأ ﷺيسأل الناس ما اليوم؟ فقالوا: الاثنين. فقال: وأي يوم مات النبي ﷺ؟ فقالوا: الاثنين، فقال: اللهم اجعلني أموت في ليلتي هذه. ثم قال: في أي شيء كفن رسول الله ﷺ؟ فقالوا: في ثلاثة أكفان. فقال: أعدوا لي ثلاثة أكفان واجعلوا من يغسلني أسماء بنت عميس زوجتي، –وهذا تكريم للمرأة في الإسلام، فهي أول امرأة غسلت

زوجها– فإن لم تستطع فليعنها أولادي. فغسلته كما أمرها رضي الله عنها، فكانت وفاته سنة 13 هجرية يوم الإثنين بعد عامين من وفاة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله سلم. وفي نفس العمر الذي توفي فيه النبي ﷺ (63 عاما)، ودفن في غرفة بنته الصديقة العفيفة النقية الطاهرة السيدة عائشة رضي الله عنها مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

هذه هي المحبة وإلا فلا. اتباع في كل شيء في الحياة والممات، لم ينس محبوبه حتى بعد وفاته، كان مقتفيا لنهجه في الحل والترحال، والمنشط والمكره فرضي الله عنه وأرضاه.

وخلاصة المرام في تحقيق المقام:

إن المحبة تصنع العجائب، وترفع العبد مقاما عليا. عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:"من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام، وباب الريان"، فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: وهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر".

وفي رواية ابن حبان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال سيدنا رسول الله ﷺ:"أجل وأنت هو يا أبا بكر".

ما السر الذي جعل الصديق الأكبر رضي الله عنه يدخل من أبواب الجنان كلها ؟ إنها محبته الشديدة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، دخل من باب المحبة ففتحت له جميع الأبواب، استكمل إيمانه لأنه محب صادق صِدِّيق.

ولله در الإمام ابن القيم الجوزية رحمه الله القائل:

وسوف يدعى المرء من أبوابها
جمعا إذا وفى حلى الإيمان
منهم أبو بكر هو الصديق ذا ك
خـــليفة المبعوث بالقرآن.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

من أعلام الجزائر
الإمام أحمد المقري
(986-1041هـ) - حياته وآثاره-

إعداد العمري بلاعدة
أستاذ بجامعة المسيلة

إن العارفين بتاريخ الجزائر عبر تاريخها الطويل يعلمون أنها أنجبت كثيرا من الرجال في شتى الميادين بلغوا كل في مجاله أعلى الرتب والمناصب. من هؤلاء الرجال الذين أنجبتهم الجزائر الإمام أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقري[1] التلمساني[2] مولدا ونشأة، أحد أعلام القرن العاشر والحادي عشر الهجريين لمع نجمه وعلا شأنه في المغرب والمشرق.

إن الإمام المقري حافظ المغرب وحجة المشرق، لم ير نظيره في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوة البديهة، فقد كان آية باهرة في شتى العلوم والفنون، حيث شهد له معاصروه بالفضل والإمامة والتفوق في الفقه وأصوله، والحديث وعلومه، والأدب وفنونه. كما تشهد مصنفاته العديدة والمفيدة على غزارة علمه، وعمق فهمه، وتأثيره الكبير. ومما هو معلوم أن الإمام المقري نشأ وتعلم ببلده تلمسان، حيث قرأ على عمّه الشيخ الجليل أبي عثمان سعيد بن عثمان بن أحمد المقري مفتي تلمسان، حيث أسهم في تكوينه تكوينا أدبيا موسوعيا بعد أن قرأ عليه سنوات طويلة، ومن جملة ما قرأ عليه القرآن الكريم وصحيح البخاري، وروى عنه الكتب الستة – الصحيحان والسنن الأربعة – بسنده عن أبي عبد الله التنسي، عن والده محمد بن عبد الله التنسي، عن عبد الله بن مرزوق عن أبي حيان عن أبي جعفر بن الزبير عن أبي الربيع عن القاضي

عياض بأسانيده المذكورة في كتابه "الشفا في التعريف بحق المصطفى"، كما درس عليه أيضا الأدب والفقه المالكي.

رحلته المغربية: بعد أن استوعب علوم تلمسان، ونبغ في مختلف الفنون العلمية والأدبية، خاصة العربية من شعر وأدب وغيرهما، بدأ رحلته إلى فاس. ولم يذكر لنا المقري السبب الذي دعاه إلى الرحلة وترك بلده تلمسان الجزائرية، غير أن بعض الدراسات ترى أن الفتن التي عاشتها الجزائر في بداية العهد العثماني هي السبب في هجرة المقري من تلمسان إلى مدينة فاس[3]. ومهما كانت أسباب رحلته، فإن الإمام المقري كان من العلماء الذين يحرصون على الرحلة لما لها من وقع حسن في نفوس الناس عامة، وفي وسط المتعلمين خاصة.

وقد اتفقت المصادر على أن الإمام المقري غادر تلمسان إلى فاس سنة 1009هـ، للاستزادة من العلم والالتقاء بالعلماء الكبار، خاصة وهو في سن الفتوة والاكتمال البدني، مودعا الأهل والوطن والأصحاب، وكله شوق إلى طلب العلم والتبحر في فنونه.

وقد أمضى الإمام المقري بعض الوقت في الدرس والتحصيل العلمي بمدينة فاس، حيث كانت عاصمة للدولة الزيانية لعدة قرون قبل مجيء العثمانيين، فاشتهرت برصيدها الثقافي الكبير، لكثرة علمائها وتنوع علومها وتعدد مكتباتها ووفرة مدارسها، ثم انتقل الإمام المقري سنة 1010هـ إلى مراكش، حيث اتصل بأبي العباس أحمد المنصور الذهبي (ت1012هـ) أشهر سلاطين السعديين وقمّة مجدهم، الذي اشتهر بأعماله الجليلة، حيث كانت فترة حكمه من أزهى فترات التاريخ السعدي سياسيا واقتصاديا وثقافيا[4].

وفي سنة 1011هـ عاد المقري إلى مسقط رأسه تلمسان حيث الأهل والوطن والأصحاب.

ثم بعد فترة زمنية من إقامته بتلمسان أحسّ المقري بالحاجة إلى التكوين العلمي والاستزادة من المعرفة فعاد من جديد إلى فاس، وكان ذلك سنة1013هـ، حيث استقر بها يطلب العلم عن شيوخها ويلتقي بأكبر علمائها، فتبحر في علوم الشريعة والأدب والتاريخ، حيث انتهت إليه رئاسة علماء زمانه، وترامى صيته في الآفاق، ولقي من أولي الأمر إعزازا

وإكراما.

وفي سنة1022هـ ولي الإمامة والخطابة بجامع القرويين بعد وفاة إمامه وخطيبه الكبير الشيخ أبي عبد الله محمد الهواري، ثم تولى الإفتاء وبقي في هذا المنصب نحو ثلاثة عشر عاما[5]، وهي وظيفة العلماء البارزين في عهده. كما ألّف الإمام المقري أثناء إقامته بالمغرب الأقصى كتبا جليلة، وهي:

– أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض[6]، حيث كان المقري معجبا أيّما إعجاب بالقاضي عياض، حتى أنه قال في حقّه:

سلام مثل عرف المسك طيبا

وحسنا مثل أزهار الرياض[7]

على لفظ الجلالة والمعـــالي

إمام الدين والدنيا عيـاض

إذا ما قيس بالعلـــماء طـرّا

غدا بحرا وأضحوا كالحياض

– الجنابذ فيمن لقيته من الجهابذ.

–روض الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس. ألفه المقري حوالي سنة–1011 1012هـ ليقدمه إلى المنصور أحمد الذهبي[8].

رحلته المشرقية: بالرغم من هذه المكانة العالية التي تبوأها الإمام المقري في المغرب الأقصى التي وطأت له أسباب المجد والسؤدد، فإنه قرّر أن يتركه في أواخر سنة1027هـ. إلاّ أنه كعادته لم يذكر لنا السبب الذي جعله يترك المغرب ويزمع على الرحلة إلى المشرق، وكل ما قاله هو:"ثم ارتحلت بنية الحجاز وجعلت إلى الحقيقة والمجاز"، ولكن ما أفاده الباحثون[9] بشأن سبب رحلته المشرقية هو أن المغرب لم يكن في حالة استقرار سياسي، حيث النزاعات كثيرة والاضطرابات عديدة. وكما هو معلوم أن العلماء في مقدمة وقود الفتنة إذا وقعت لأن مكانتهم خصوصا إذا كانوا في منصب الإفتاء تجعلهم هدفا لطلب التأييد والنصرة.

وقد سجّل صديقه ومعاصره عبد الكريم الفكون سبب هجرة المقري من المغرب هو فساد بلاد فاس بتبدل دولها بين أولاد أميرها حتى تداعت للخراب فارتحل المقري، حيث ورد:"يقال إنه عن خوف من الأمير الذي تولى إذ ذاك لكونه –أي المقري– فيما يقال له خلطة بالأمراء والانتماء إلى بعض دون بعض"[10].

غير أن الإمام المقري قد أشار إشارة خفيفة إلى سبب ارتحاله من المغرب في مقدمة النفح بقوله:"إنه لمّا قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أو ردّ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو ردّ، برحلتي من بلادي، ونقلتي عن محل طارفي وتلادي بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه، لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصا، وطما به بحر الأهوال...وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف، تاركا المنصب والأهل والوطن والإلف" [11].

ومهما كانت أسباب رحلته من المغرب فإنه يبدو أنه كان ينوي زيارة المشرق، حيث كانت نفسه تتوق إلى رؤية البقاع المقدسة، كما أخبرنا هو في رسالة بعث بها إلى الولي الصالح أبي بكر المغربي، وهي مؤرخة بتاريخ العاشر من صفر سنة1021هـ بقوله:"...إن العبد كان يروم اللحاق بتلكم الديار المحروسة بتوفيق الله من الأغيار، فلم تساعده الأقدار، ولم يحصل من الإقامة إلا على أشجان وأكدار:

إلى الله أشكوا بالمدينة حاجة
وبالشام أخرى كيف تلتقيان.

ولأن الإمام المقري كان دائما يتمنى السفر إلى بلاد الحجاز لزيارة بيت الله الحرام، وقد كان طموحه بلا حدود، ألم يقل عن نفسه بعد هجرته إلى البلاد المشرقية:

ولي عزم كحد السيف ماض
ولكن الليالي من خصومي

ولم تثن من عزيمة الإمام المقري تلك الاضطرابات السياسية والفوضى السائدة في بلاد المغرب، حيث قرر الرحيل إلى بلاد المشرق الإسلامي بعزم صادق وإيمان قوي على تحقيق أمنيته، وكان ذلك في شهر رمضان من سنة 1027هـ.

وقد ذكر المقري أن أبا الحسن عليّا الخزرجي الفاسي الشهير بالشاحي لمّا سمع بعزمه على الارتحال عن الوطن كتب إليه بما كتبه أبو جعفر أحمد بن خاتمة المغربي إلى بعض أشياخه، وهو:

أشمس الغرب حقّا بما سمعنا
بأنك قد سئمت من الإقامة
وأنك قد عزمت على طلوع
إلى شرق سموت به علامة
لقد زلزلت منا كل قلب
بحق الله لا تقم القيامة(12)

وقد غادر الإمام المقري المغرب الذي أصبح أمنه منعدما وأوضاعه متدهورة تاركا أهله وابنته وخزانة كتبه، بعد أن قضى فيه أربعة عشر سنة، مرورا بمسقط رأسه تلمسان ثم مدينة الجزائر، حيث اتصل بعلمائها وشرع في التدريس، وخصوصا التفسير، وتبادل مع كبير علمائها عندئذ، وهو سعيد قدورة، الألغاز والنكت والمعلومات.

وقد روى عبد الكريم الفكون ذلك بشيء من التعريض بالإمام المقري قائلا:"إنه نزل دار الجزائر على فقهائها وعلمائها، وتصدى للتدريس بها، وقرأ بها التفسير".

ثم غادر مدينة الجزائر متوجها إلى تونس[13]، ولمّا وصلها اتصل بالشيخ أبي عبد الله محمد تاج العارفين بن أبي بكر العثماني التونسي إمام وخطيب جامع الزيتونة، وقبل أن يقدم عليه كتب إليه يطلب منه الإجازة، فأجابه الإمام المقري مجيزا [14] في قصيدة فاقت الأربعين بيتا، وذلك في شهر صفر من سنة 1028هـ.

وبعد معاناة ومكابدة في البر والبحر وصل الإمام المقري إلى مصر–القاهرة–، وكان ذلك في شهر رجب من سنة 1028هـ، كما أخبرنا المقري في كتابه نفح الطيب، ثم سافر إلى الحجاز بحرا فأدى العمرة سنة 1028هـ ثم فريضة الحج في السنة الموالية، حيث أخذته رعشة وانبهار عند رؤية بيت الله الحرام، ثم رحل إلى بيت المقدس في شهر ربيع الأول من سنة 1029هـ، وأخذ يتردد إلى مكة والمدينة مرارا [15]، حيث أملى فيها دروسا عديدة ومفيدة، كما أملى الحديث النبوي بجوار مقام الرسول ﷺ، وقد ذكر الإمام المقري هذا الجانب في كتابه نفح الطيب قائلا:"وحصلت لي المجاورة فيها–أي في مكة– المسرّات، وأمليتُ فيها على قصد التبرك دروسا عديدة، والله يحيل أيام العمر بالعود إليها مديدة، ووفدتُ على طيبة المعظمة مُيمّما مناهجها السديدة سبع مرار، وأطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار، واستضأت بتلك الأنوار، وألفتُ بحضرته ﷺ بعض ما منّ به علي في ذلك الجوار، وأمليتُ الحديث النبوي بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع".

فقد أملى الإمام المقري الحديث النبوي وصحيح البخاري كلّه عند الروضة الشريفة قرب قبر الرسول الأمين، ثم رجع

المقري إلى مصر بعد حجته الخامسة سنة 1037هـ، حيث تصدّر لتدريس صحيح البخاري في جامع الأزهر الشريف حتى بهر الحاضرين، ثم بعد ذلك رحل إلى القدس في شهر رجب من العام نفسه، وأقام فيها خمسة وعشرين يوما، وألقى عدّة دروس بالمسجد الأقصى والصخرة، وزار مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، ومزارات أخرى.

وفي منتصف شهر شعبان عزم الإمام المقري على التوجه إلى دمشق، وقد أرسل إليه أحد أدبائها البارزين أحمد بن شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية، وكتب مع المفتاح هذه الأبيات:

كنف المقري شيخي مقرّي
وإليه من الزمان مفري
كنف مثل صدره في اتساع
وعلوم كالبحر في ضمن بحر
أيّ بدر قد أطلع الدهرَ منه
ملأ الشرق نورهُا أيّ بدر
أحمد سيدي وشيخي وذُخري
وسُميّ وذاك أشرف فخر
لو بغير الأقدام يسعى مشوّق
جئته زائرا على وجه شكري

فأجابه الإمام المقري قائلا:

أيُّ نظم في حسنه حار
فكري وتحلّى بدرّه صدر ذكري
طائر الصيت لابن شاهين يُنمى
مَنْ بروض النّدى له خير ذكري
أحمد الممتطين ذروة مجد
لعوان من المعاني وبكر
حلّ مفتاح وصله باب وصل
من معاني تعريفه دون نكر
يا بديع الزمان دُمْ في ازدياد
بالعلا وازدياد تجنيس شكري

وبقي المقري في دمشق عدّة أسابيع وأملى بها صحيح البخاري في الجامع الأموي، ولم يتفق لغيره من العلماء الذين أمّوا دمشق ما اتفق له من الحظوة والإقبال، وجرت بينه وبين علمائها وأدبائها مطارحات شتى، وكان أكثر أدبائها إقبالا عليه وتعظيما له وإعجابا به الأديب الكبير أحمد شاهين القبرصي الأصل.

ويصف لنا المحبي إقبال الدمشقيين على الإمام المقري بقوله:"وأملى صحيح البخاري بالجامع تحت قبة النسر بعد صلاة الصبح، ولمّا كثُر الناس بعد أيام خرج إلى

صحن الجامع تُجاه القبة المعروفة بالباعونية وحضره غالب أعيان علماء دمشق، وأما الطلبة فلم يتخلف منهم أحد، وكان يوم ختمه حافلا جدّا، اجتمع فيه الألوف من الناس وعلت الأصوات بالبكاء، فنُقلت حلقة الدرس إلى وسط الصحن إلى الباب الذي يوضع فيه العَلم النبوي في الجُمعات من رجب وشعبان ورمضان، وكانت الجلسة من طلوع الشمس إلى قرب الظهر، وأوتي له بكرسي الوعظ فصعد عليه وتكلم بكلام في العقائد والحديث لم يسمع نظيره قط، وتكلم على ترجمة البخاري، وأنشد له بيتين، وأفاد أنه ليس للبخاري غيرُهما، وهما:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع
فعسى أن يكون موتك بغتة

كم صحيح قد مات قبل سقيم
ذهبت نفسه النفيسة فلتة

ثم ختم الدرس بآيات قالها حين ودّع المصطفى ﷺ، ونزل عن الكرسي فازدحم الناس على تقبيل يده، وكان ذلك نهار الأربعاء سابع عشر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وألف"[16].

بعد ذلك عاد الإمام المقري إلى القاهرة واستقر بها إلى أن مات، وذلك في جمادى الآخرة من سنة 1041هـ. وقد شاءت الأقدار أن يقيم المقري اثني عشرة سنة من حياته بعيدا عن أهله ووطنه.

آثاره وإجازاته

عاش الإمام المقري في المشرق حياة حافلة بالنشاط العلمي، حيث ألّف معظم كتبه هُناك، ولا سيما موسوعته الأدبية والتاريخية "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب". كما صنّف عددا من مؤلفاته الدينية في المدينة المنورة، مثل: "فتح المتعال في مدح النعال" وهو بحث في النعال النبوية، و"أزهار الكمامة في أخبار العمامة، ونبذة من ملابس المخصوص بالإسراء والإمامة" وهو بحث في عمامة وملابس النبي ﷺ، كما ألف كتابا في الأسماء النبوية سمّاه "الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين".

وألّف في العقيدة كتبا قيّمة منها: "إتحاف المغرم المُغرى في شرح السنوسية الصغرى" وهو تكميل لشرح السنوسية في علم التوحيد، و"إضاءة الدُجنة في عقائد أهل السنة" وهو منظومة

بدأ تأليفها أثناء زيارته للحجاز سنة 1027هـ، ودرّسها في الحرمين الشريفين، وأتمها في القاهرة سنة 1036هـ، و"حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي" و"البدأة والنشأة" ذكره المحبي في خلاصته وقال: كله أدب ونظم، و"عرف النشق في أخبار دمشق" و"الغث والسمين، والرث والثمين" و"قطف المهتصر في شرح المختصر" وهو شرح على حاشية مختصر خليل في الفقه، ذكر ذلك المحبي وغيره.

ونظّم رجز سماه "نيل المرام المغتبط لطالب المخمس الخالي الوسط"، وكتاب"الرحلة إلى المغرب والمشرق" ويظهر أنه ألفه في أخريات حياته.

كما كانت للإمام المقري مخاطبات ومراسلات مع أعيان عصره من فحول الأدباء والشعراء والعلماء والفقهاء والقضاة والأمراء ورجال الإفتاء، من المغرب العربي ومصر والحجاز وبلاد الشام، من هؤلاء: محمد بن يوسف الكلشني، وإبراهيم بن محمد الأكرمي، ومحمد بن علي الحريري، وأبو بكر الدلائي، وابنه محمد، وفتح الله بن محمد البيلوني، ومحمد بن راس العين، وسعيد قدورة، وأيوب بن أحمد الخلوتي، وأحمد شهاب الدين العجمي، وغيرهم من الأعلام.

كما كان للمقري نشاط علمي متميز تمثل في إجازاته العلمية التي أجاز بها طلبته وبعض علماء عصره، وقد فاقت عشرين إجازة، نذكر على سبيل المثال ممن درسوا على المقري وأجازهم:

- عبد الباقي الحنبلي الدمشقي (ت1071هـ) درس عليه العقائد والحديث بالأزهر الشريف.

- عبد القادر بن غصين الغزي الذي درس وقرأ عليه أرجوزته العقدية"إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة".

- أحمد بن القاضي شهاب الدين العجمي(ت1086هـ) درس عليه المنطق والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية لابن أحمد القسطلاني المصري الشافعي(ت923هـ)، حيث جاء في نص الإجازة:"أجزتُ...الشيخ أحمد بن القاضي شهاب الدين العجمي... جميع ما تجوز لي وعنّي روايته...وأجزته المواهب اللدنية...فليرو عنّي ذلك وغيره...".

– الأديب الدمشقي أحمد بن شاهين(ت1053هـ) الذي حضر دروسه العقدية بالجامع الأموي، حيث نظم له إجازة في ستّ وخمسين بيتا.

وأخيرا يمكن القول أن الإمام المقري كان من أكبر مثقفي عصره فقها وتفسيرا وحديثا، كما كانت له الشهرة الواسعة في التاريخ وفنون الأدب، حيث كرّس حياته للعلم والمعرفة، فقد يعود له الفضل في تعريف المغاربة بما كان يجري في المشرق من حركة علمية وأدبية، وتقريب ما كان يجري في المغرب إلى المشارقة، فقد اعترف له العلماء، وخصوصا علماء الشام، بما هو أهل له من الحفظ والعلم والأدب.

الهوامش

(1) نسبة إلى مدينة مقرة تقع شرق عاصمة ولاية المسيلة بحوالي 60كلم. وعائلة المقري ذات التاريخ العريق التي تعود أصولها إلى القبيلة العربية الشهيرة –قبيلة قريش–، وقد أثبت هذه النسبة المقري نفسه، وكذلك ابن الخطيب وابن خلدون وغيرهم.

(2) نسبة إلى مدينة تلمسان التي ولد ونشأ وقرأ وتعلّم بها المقري، حيث كانت عاصمة الدولة الزيانية لعدة قرون قبل مجيء العثمانيين.

وفي التاريخ الذي ولد فيه المقري كان قد مرّ على دخول الأتراك العثمانيين المدينة ثلاثة عقود من الزمن، الأمر الذي أفقدها أهميتها العلمية والسياسية بسبب معاملة الأتراك لأهلها، وكذلك الحروب والفتن الداخلية التي كانت قد عرفتها الدولة الزيانية في أخريات أيامها.

كل ذلك دفع بالكثير من العلماء بالهجرة منها والرحلة إلى بلاد أخرى. ينظر: المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق ص6، تحقيق د/محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر:2004م.

(3) ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري:222/2. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

(4) ينظر: المقري، نفح الطيب:13/1.

(5) ينظر: محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج:256. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر:1983م.

(6) هو القاضي أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي المولود سنة 496هـ، والمتوفى سنة 544هـ.بمراكش، مناقبه عديدة ومؤلفاته كثيرة. ينظر: مخلوف، شجرة النور:1/140–141.

(7) هذا الكتاب شبيه بكتابه نفح الطيب حجما وفائدة.

(8) يذكر بعض الباحثين أن هذا الكتاب عبارة عن خلاصة الرحلة التي قام بها المقري إثر زيارته الأولى إلى المغرب الأقصى في الفترة ما بين [–1009 1010هـ]، حيث تضمن هذا الكتاب على معلومات هامة حول الحياة الفكرية والأدبية على عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، وقد ترجم فيه المقري لأربعة وثلاثين عالما من علماء فاس ومراكش.

(9) يقول الأستاذ محمد حجي بشأن سبب هجرة المقري من المغرب:"وكان خروج المقري من فاس بسبب اتهامه بالميل إلى قبيلة شراكة (شراقة) في فسادها وبغيها أيّام السلطان محمد الشيخ السعدي، فارتحل إلى الشرق".

(10) ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي:2/223.

(11) ينظر: المقري: نفح الطيب:1/13.

(12) ينظر: مقدمة محقق نفح الطيب للمقري:1/6–7.

(13) بعض المصادر تذكر أنه ركب البحر، وأخرى تذكر أنه سافر برّا. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي:2/225.

(14) الإجازة: هي حصول إذن من الشيخ للطالب أو المريد أو للعالم آخر، في رواية الحديث الشريف أو الفقه أو غيرهما من العلوم. أو هي تأهيل يستحق بها المجاز لقب الشيخ أو الأستاذ في العلوم المجاز بها.

(15) تذكر بعض المصادر أنه زار مكة المكرمة خمس مرات، والمدينة المنورة سبع مرات.

(16) ينظر: المحبي، خلاصة الأثر:1/305.

علماء من بني ورتيلان
"الشيخ المولود الحافظي نموذجا"

الأستاذ محمد الصغير بن لعلام

لقد كانت منطقة بني ورتيلان، فيما يسمى الآن بالقبائل الصغرى، قلعة من قلاع العلم، كما كانت قلعة من قلاع الجهاد في سبل الله والوطن. والمتصفح لتاريخ هذه المنطقة يجد أنها كانت دائما رباطا للعلماء العاملين، وقطبا موجبا يجلب إليه أفذاذا من الشخصيات العلمية من مختلف أنحاء الوطن، وحتى من المغرب الأقصى فقد أورد الشيخ الحسين الورتلاني، في رحلته المشهورة، عديدا من أسماء هؤلاء الذين قدموا إليها، من مشارق الأرض ومغاربها، واتخذوها مقرا لهم.

ونحن الآن نجهل الكثير عن الموروث العلمي لهذه المنطقة، في الفترة التي تسبق القرن التاسع الهجري، لأن هذا التراث قد قضت عليه السلطات الاستعمارية، إما بالسلب، أو بالحرق، واليسير الذي بقي منه موزعا ومشتتا هنا وهناك، ولكن ابتداء من القرن التاسع، وخاصة بعد ضعف الدولة الحفصية في بجاية، ثم سقوطها في يد الأسبان، تكونت مدارس، ومعاهد، أو ما نسميه في المنطقة "ثيمعمرين" أي المعمرة أو ما نسميه الآن بالزوايا. وإني جازم بأن للعلامة والولي الصالح الشيخ سيدي يحي العبدلي تأثيرا كبيرا في ذلك،ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بالرجوع إلى رحلة الشيخ الحسين الورتلاني، التي أشرنا إليها آنفا، والمسماة "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" .فإنه قام بمسح شامل للبيوت العلمية ومعاهدها في المنطقة.

وأول تلك المعاهد التي أنشئت في

المنطقة هي زاوية فريحة، التي أسسها الشيخ سيدي يحي بن موسى، رحمه الله، والمعروف في المنطقة باسم سيدي (خموسى)، وهو تلميذ الشيخ يحي العبدلي، وهو الذي أشار عليه بتأسيس الزاوية، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري. وقد وصف الشيخ الحسين هذا الشيخ بأنه رجل ذو شأن كبير، كما وصف أبناءه من بعده بأنهم مشهورون بخصلتين: القراءة والإطعام. وقد بقي هذا المعهد يؤدي مهمته إلى أن دمرته طائرات فرنسا، في سنة 1956، أثناء الثورة التحريرية الكبرى، لأنه يوجد في منطقة تعتبر من أهم معاقل الثورة في القبائل الصغرى، وخاصة في السنوات الأولى للثورة، ومن أشهر خريجي هذا المعهد الشيخ الشهيد محمد العدوي المسيلي، أحد أبرز أساتذة معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة وقد درست عليه شخصيا في معهد ابن باديس، في بداية الخمسينات، وهو الذي أخبرني بنفسه عندما علم أنني من المنطقة، وقد استشهد الشيخ العدوي، رحمه الله،تحت التعذيب في مستشفى قسنطينة سنة 1956، رحمه الله .

وسأنتقل للحديث عن الفترة المعنية بالدرس، أي من نهاية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، وهي الفترة التي عاش فيها العلامة الشيخ المولود الحافظي، رحمه الله، والشيخ الثائر المجاهد الفضيل الورتلاني رحمه الله، ولن أتعرض في هذه الدراسة للشيخ الفضيل، لأني رأيت لزاما علي أن أعد دراسة تفصيلية بقدر الإمكان، حول حياة الفضيل الورتلاني وجهاده في سبيل الإسلام، والوطن والعروبة، الذي لم يتوقف، إلا بتوقف قلبه عن النبض.

ولكن أرى من اللازم علي أن أشير، ولو باختصار، إلى بعض علماء المنطقة الذين ذاع صيتهم، وطبقت شهرتهم الآفاق في الجزائر، وخارجها، في عهد الدولة الجزائرية أي في العهد العثماني، وأول هؤلاء:

1) العلامة الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتلاني، الجد الأعلى للشيخ الفضيل الورتلاني. ولد في بني ورتلان سنة 1125 هـ وتوفي بها سنة 1193 هـ وهو صاحب الرحلة المشهورة برحلة الورتلاني، نشأ في بيت علم ودين، تعلم عن أبيه ،حفظ القرآن الكريم وهو صغير، في مسجد القرية الذي كان يشرف عليه

أبوه، ثم انتقل إلى معاهد وزوايا المنطقة ،يغرف منها ما شاء الله له من العلوم الشرعية واللغوية، حتى أصبح أعلم علماء المنطقة، وأجزم بأنه قد أخذ عن الشيخ يحي أوحمودي، وهو من أكبر علماء المنطقة، وأتقاهم وأخلصهم لله، وسأشير إليه فيما بعد، ولو بكلمات قليلة.

وقد درس الشيخ الحسين، في المعاهد التي درس فيها عندما كان يافعا، كذلك درس في بجاية، وتخرج على يديه عدد وافر من الطلبة، الذين أصبحوا فيما بعد حاملي لواء العلم، والمعرفة في المنطقة، واشتغل في التأليف، فألف عدة كتب في العلوم الشرعية خاصة، وللأسف الشديد لم نعثر بعد على هذه الكتب، ولكن نجد أثرها في أكبر عمل أنجزه الشيخ الحسين، وهو رحلته التي سماها " نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار"، التي نشرها العلامة الشيخ ابن شنب، في بداية القرن العشرين، وقد خرج فيها عن المعهود في زمانه، بانصراف العلماء إلى التأليف في الفقه، والتوحيد، وخاصة في التصوف، أما هو فقد انصرف ذهنه وتعلقت همته بالتاريخ والأخبار، بل نراه يأخذ على علماء عصره، ومن سبقهم، تقاعسهم عن الانشغال بالتاريخ، مع أن السيرة النبوية جزء من التاريخ.

ورحلته هذه التي تقع في حوالي 1000 صفحة من القطع الكبير، هي نتاج رحلته إلى البقاع المقدسة، لأداء فريضة الحج سنة 1179هـ، وتبدو لنا صورة الشيخ واضحة جلية، فهو عالم، عامل، تقي، لا يخاف في الله لومة لائم، صريح في آدائه، شديد على العلماء المتقاعسين، جريء على الحكام الظالمين، وعلى الدولة التي تركت الأمور سبهللا، وتخلت عن مسؤولياتها السياسية، والثقافية، والاجتماعية، مما جعل البلاد تعيش في اضطرابات لا تنتهي، وفي حروب محلية بين القبائل والعروش وفتن طائفية لا تكاد تنتهي، حتى يشتعل أوارها من جديد.

ورحلة الشيخ الورتلاني، أعظم كتاب أرخ لوسط الجزائر وشرقها، بل وحتى لتونس، ومصر، والحجاز، والملاحظ أن الشيخ الورتلاني، لم يؤرخ للدولة، أو للحكام والأعيان، وإنما أرخ الحياة اليومية للشعب، وهو بذلك قد خالف الأسلوب المتبع قبله، من المؤرخين، والرحالة الذين

سبقوه– وإن كان قد أخذ عنهم، أو على الأقل استفاد منهم – ومن أهم مميزات هذه الرحلة، ما يرد فيها بين الفينة والفينة من النقد الذاتي لأهل وطنه، وعقد مقارنات بين مختلف الأقاليم التي مر بها، فبين ما يمتاز به كل إقليم عن بقية الأقاليم الأخرى. ويقول د.سعد الله عن هذه الرحلة إنها تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن 18م 12هـ، فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال، وأضيف أنه على الهيئات العلمية عندنا والدينية، أن تسعى لتحقيق هذا السفر الضخم من إنتاجنا الثقافي وطبعه، بعد أن تكون لجنة من العلماء المختصين في مختلف، الميادين لتحقيقه ونشره.

2) الشيخ يحي أوحمودي أو ابن حمودي،

الجد، هو من أحفاد الولي الصالح سيدي يحي بن موسى، مؤسس زاوية فريحة، ببني ورتيلان – وقد كان الشيخ يحي معاصرا للشيخ الحسين الورتلاني، وقد ذكرت ذلك سابقا، غير أنه كما يستشف من كلامه، بالحديث عنه بكثير من التبجيل، والتكريم، والتقدير، كان أكبر منه سنا فهو يصفه في رحلته بـــ " العالم الفاضل، الولي الكامل"، وولد الشيخ يحي الشيخ أحمد، وهو فقيه مثل أبيه، فقد أجازه شيخ الإسلام مرتضى الزبيدي، وقد لقبه وهو الضنين بالألقاب إلا لمن يستحقها " الشيخ العالم الإمام الهمام العلامة فقيه الطالبين ومربي السالكين شمس المعارف.. شيخ الوقت سيدنا ومولانا الشهاب أحمد بن يحي بن حمودي، نفعنا الله به، وتاريخ الإجازة صفر 1203 هـ، وقد أخبرني شيخنا الشيخ الطاهر آيت علجت، أطال الله في عمره، أنه اطلع على هذه الإجازة قبيل اندلاع الثورة، ولكن مكتبة آل حمودي، أتى عليها ما أتى على كل المكتبات في المنطقة، من حرق، وتمزيق، وسرقة، من قبل المستعمر الغاشم، إبان الثورة التحريرية.

والآن انتقل إلى المرحلة التي كانت الهدف من هذه الدراسة، وهي المرحلة الحديثة، وأود أن أشير إلى أني سأذكر بعض الأعلام، ليس على سبيل الحصر، وإنما كنماذج، ثم إني لن أتعمق في دراستهم في هذه العجالة، وإنما فقط إعطاء لمحة وجيزة عنهم، وقد أعود لإعطاء تلك الأسماء ما تستحق من الدراسة الشاملة الكاملة.

1) الشيخ السعيد أبهلول (فضلاء)

ولد في رجب 1276هـ الموافق لـ 1860م في بني ورتلان، وبها توفي في صفر عام 1336 الموافق 1940م، وهو عميد علماء المنطقة في عصره، نشأ في بيت علم، يتوارث فيه العلم أبا عن جد، منذ قرون، وكان لأسرته معهد علمي في إحدى قرى بني ورتلان، وبقي هذا المعهد عامرا إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية، وحسب تحليلي الشخصي فإن جده الأكبر هاجر من بجاية إلى بني ورتلان، بعد أن فقدت بجاية مكانتها العلمية و الحضارية غداة احتلال الاسبان لها، فتفرق علماؤها، وفقهاؤها، ومثقفوها، شذر مذر في مختلف مناطق زواوة، وقد أخذ العلم في معهد أسرته، وكذلك في معاهد المنطقة وزواياها، وخاصة زاوية سيدي يحي بن موسى، في" فريحة "بني ورتيلان،(وليست "فريحة" الواقعة بعزازقة). وهو عميد علماء المنطقة كما أسلفت، مع كثرتهم، وهو فقيه لا يشق له غبار، وقد كانت له فتاوى في مختلف مجالات الحياة، وكان من أبرز مؤيدي الشيخ ابن باديس في فتواه المشهورة حول التجنيس والتجنس – إذ يرى الشيخ ابن باديس، رحمه الله، أن من تجنس بالجنسية الفرنسية، فقد خرج عن الإسلام، وكانت هذه الفتوى محل جدال ونقاش بين العلماء، من مؤيد ومعارض لأن الحوار أو الجدال في الحقيقة كان بين قطبين عظيمين، شيخ الإسلام في تونس العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور، الذي كان لا يرى بأسا في التجنس بالجنسية الفرنسية، ورائد الإصلاح في الجزائر، العلامة الشيخ ابن باديس، الذي يرى عكس ذلك، ومستند الشيخ ابن باديس في فتواه تلك، هو أن من تجنس بجنسية أهل الكتاب فقد ولاهم على نفسه، والقرآن يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المائدة: ٥١، ثم أن من تجنس بالجنسية الفرنسية تطبق عليه القوانين الفرنسية، والقانون المدني خاصة، الذي يحل محل الفقه الإسلامي، فيما يتعلق بما نسميه الآن الأحوال الشخصية، أو قانون الأسرة، وقد سئل الشيخ السعيد بهلول عن هذه المسألة ذات جمعة في بني ورتلان، فقال لسائليه: أرأيتم هذه الجبة البيضاء التي ألبسها، وهي بيضاء، لو أفرغت علبة حبر فصبغها، هل يمكن أن

يزول بعد ذلك، قالوا :لا، قال كذلك فإن من تجنس فقد استبدل صبغة الله بصبغة الكفار والشيخ السعيد بهلول، هو أبرز شيوخ الفضيل الورتلاني، وهو الذي أشار عليه بالالتحاق بابن باديس، في قسنطينة، وقد ترك هذا الشيخ ذرية صالحة، عالمة، وإن لم تكن في مستوى أبيها، نذكر منهم الشهيد عبد المالك فضلاء، والمرحوم محمد الحسن فضلاء، الذي ألف عدة كتب عن الحركة الإصلاحية، وعن التعليم الحر في عهد الاستدمار، ومحمد الطاهر فضلاء، رحمه الله، المعروف بحماسه ودفاعه المستميت عن الشيخ ابن باديس وجمعية العلماء ،وقد ألف كتابا مهما عن والده.

2) الشيخ يحي أوحمودي الحفيد، ولد سنة 1883 ببني ورتيلان، وتوفي سنة 1973 في الجزائر العاصمة، نشأ في بيت علم وتقى، فبيت آل حمودي من أشهر البيوت العلمية في بني ورتلان، منذ قرون، فقد كان جده الأكبر الذي تسمى باسمه من أفذاء العلماء كما أشرنا سالفا وكذلك أجداده الآخرون أحمد ومحمد وعبد الله ولسعة علمه وسمعته الطيبة واحترام أهل المنطقة له الذي لا يتجرأ أحد منهم على تجاوز قوله فقد كان القضاة الفرنسيون الذين يتداولون على ترأس المحكمة التي كانت تعقد في بني ورتلان أيام الاستدمار كثيرا ما يرجعون إليه ويطلبون رأيه في بعض القضايا التي تستعصي عليهم.

وقد كان الشيخ يحي من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مع ابن باديس والإبراهيمي والعقبي والتبسي والمولود الحافظي، رحمهم الله جميعا، وهو عضو في المجلس الإداري الأول لهذه الجمعية وبقي حاملا لواء العلم بالتعليم والإفتاء والوعظ والإرشاد إلى أن توفاه الله في سنة 1973.

3) الشيخ لحلو وعمارة: ولد في 1883 في بني خيار إحدى مناطق بني ورتلان وتوفي فيها سنة 1967.

أدرك أن كثيرا منا لم يسمع بهذا الاسم من قبل لأن صاحبه لم تكن تهمه أن يسمع به أو لا يسمع، لأنه كرس حياته الطويلة للتعلم والتعليم، فحياته كلها تلخصه جملة قصيرة، " نتعلم ثم نعلم "، فهذا الشيخ علامة بمعنى الكلمة، أخذ العلم عن الشيخ عبد القادر البجائي، في بجاية، وعن الشيخين محمد الطيب شنتير،

والسعيد أيجر في زاوية سيدي أحمد أويحي، بأمالو، في ضواحي مدينة أقبو، في وادي الصومام. ومن مفارقات الحياة عند هذا العالم أن أباه وإن كان ذا يسر، بل يعتبر من أغنى أغنياء المنطقة، إلا أنه لا يملك أي شيء من العلم، و لم يكن له حظ فيه، وهو فلاح بمعنى الكلمة، فكل حياته في حرث الأرض، وغرس الأشجار، وقد قضى الشيخ لحلو عقودا من الزمن في الزاوية التي تخرج منها كشيخ لها، وقد تخرج على يديه جيل من الطلبة والعلماء ،من المنطقة، ومن بقية أصقاع الوطن، وقد كان حجة في القرآن يفد إليه الطلبة والعلماء من كل فج عميق للأخذ عنه، وقد كان العلامة الشيخ نعيم النعيمي، أستاذنا في معهد عبد الحميد بن باديس، في قسنطينة، من هؤلاء، وقد كان الفضل الأول له في التمكين للثورة، في الزاوية، وفي المنطقة، فهو الذي مهد لها السبيل بشهادة الدكتور برباش، الأستاذ بجامعة الجزائر حاليا، وأحد أبناء زاوية سيدي أحمد أويحي.

4) الشهيد الشيخ الصالح ايزمران،

ولد في 1905 بقرية فريحة، ببني ورتلان واستشهد في 1957/05/24، على يد عسكر الاستدمار، حيث أخذ من سوق الجمعة، واثنين من أصحابه، وأعدموا. نشأ هذا الشيخ في قرية فريحة، هذه القرية التي كانت تحتضن أقدم معهد، أو زاوية للعلم، في المنطقة التي أنشأها الشيخ سيدي يحي بن موسى، كما أسلفت في القرن التاسع الهجري، وبقيت منذ ذلك العهد تنير على ما حولها، وتضيء الأفق بالعلم والمعرفة، وتنشر العقيدة الصحيحة السليمة من كل الشوائب حتى في أحلك عصور التقهقر والشعوذة والدجل، وقد كان يفد إليها خاصة أبناء المناطق المجاورة، كالبرج، والمسيلة، وسطيف، وجيجل الخ..

والشيخ العالم إذا هو أحد الأبناء البررة لهذه الزاوية، ففيها حفظ القرآن واكتسب ما شاء الله من العلم والمعرفة، في الفقه، وبقية العلوم الشرعية، وكذلك علوم اللغة، أخذ عن شيوخ أجلاء، منهم أبوه الشيخ الشريف، الذي كان عالما جليلا درس في عدة زوايا في منطقة زواوة، وعندما بلغ شأنا لا بأس به من العلم أرسله أبوه إلى قسنطينة، ليتتلمذ على الشيخ ابن

باديس، فكان هو والشيخ الفضيل زميلين في قسنطينة، وبعد أن أتم دراسته عاد إلى قريته قبل وفاة الشيخ ابن باديس، ودعي إلى التدريس في زاوية سيدي يحي بن موسى، في منطقة زواوة، ثم حل محل أبيه على رأس زاوية فريحة، بعد وفاته في بداية الأربعينات من القرن الماضي، وقد بقي يدرس ويعلم ويفتي إلى أن استشهد في سنة 1957 كما ذكرت.

وأذكر أن هذا الشيخ ذات يوم الأربعاء 9 ماي 1945 عندما جمع أهل القرية عندنا، وكنت آنذاك في الثالثة عشر من عمري، فخاطب الناس، وقال: إن داعب الجهاد قد نادى، فمن تأخر منكم اليوم، فقد خرج من الإسلام. فسارع الناس إلى تلبية النداء، ومنهم والدي، رحمه الله، ونحن نعرف ما وقع بعد ذلك، و لم تنس له فرنسا ذلك، فرحم الله الشيخ الصالح الذي بقي، لم يبدل و لم يغير عالما مخلصا لله ولدينه ولوطنه إلى أن وجبت له الشهادة.

5) الشيخ المولود الحافظي الشيخ

العلامة المولود بن الصديق الحافظي الفلكي الأزهري، هذا هو الاسم الذي عرف به هذا العالم الجليل، ولد في قرية بني حافظ، إحدى قرى بني ورتلان سنة 1880 وفيها توفي سنة 1948، بعد مرض عضال، ألزمه المكوث في مستشفى قسنطينة قرابة العام، ثم أرجع إلى بيته بعد أن أصبحت حالته ميئوس منها فتوفي بعد لأي، وقيل إنه توفي مسموما من طرف السلطات الاستعمارية، وهذه قصة أخرى ليس محلها الآن.

وكان الشيخ ابن باديس يلقبه بالعلامة في جريدة المنتقد التي أصدرها في سنة 1925، وكان الحافظي أحد أعمدتها، هذا العالم العلامة فريد من نوعه تكاد حياته تكون أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة، هذا الغلام الذي ولد في إحدى قرى بني ورتيلان، في عائلة فلاحية بسيطة، فقيرة، تقتات مما تجود عليها بعض القطع الأرضية التي تملكها، شأنها في ذلك شأن أغلب سكان المنطقة، ألحق بمسجد القرية لحفظ ما تيسر له من القرآن الكريم، كان ذلك واجبا أكيدا على كل أطفال المنطقة ثم منهم من ينسحب بعد لأي، ومنهم من يستمر، فيحفظ القرآن في مسجد قريته، كما دخل إلى المدرسة الفرنسية في القرية، فتعلم الفرنسية، ثم التحق بإحدى زوايا

المنطقة، وأجزم أنها زاوية فريحة، لأنها قبلة الطلبة في المنطقة، وسبب تأكيدي هو وجود مجموعة من الطلبة من قرية الشيخ، وبعض القرى المجاورة لها، عندما كنت أحفظ القرآن فيها في بداية عمري، وكأنت هذه الزاوية في الفترة المدروسة تضم مجموعة من العلماء الأعلام، أمثال الشيخ الطاهر وعمر، الذي توفي في بداية القرن الماضي، والشيخ عمر أوبلقاسم، والشيخ أحمد أوحمودي، وغيرهم ،فنهل منها ما شاء الله له من مبادئ العلوم الشرعية واللغوية، فتفتحت أعين الطفل على أفق علمي فسيح، لم يكن يتصوره، أو بحلم به، أو يتوقعه، فعزم على الاستمرار في هذا الطريق والمضي في هذا السبيل حتى يجعل لنفسه مكانا بين العلماء، فرسم في ذهنه هدفا جوهريا لابد من تحقيقه، هذا الهدف هو الوصول إلى الأزهر الشريف، ولكن أين هو من الأزهر، وكيف يصل إليه، وأين الوسائل التي تمكنه من ذلك، وهنا تصطدم إرادة الطفل بإرادة الأب، فالطفل عازم على مواصلة مشوار العلم والتعلم، والأب عازم على كسر تلك إدارة وإلحاق الابن بالعمل الفلاحي، ليساعده على حمل عبء الأسرة، وخاصة أنه هو الأكبر، واشتد الصراع بين الأب والابن، ولكن إرادة الله أرادت غير ذلك، في نفس الوقت الذي بلغ فيه الصراع أشده وقع ما لم يكن في الحسبان، إذ أن هذا الأب الغليظ الفظ الجبلي، الصلد الشديد، وقعت بينه وبن أحد أقاربه خصومة فوكزه كما فعل موسى فقضى عليه، وكانت تلك الطامة الكبرى التي نزلت على الأسرة والولد خاصة، فالأب في السجن، والدار والأسرة في رقبته والحنين إلى العلم في ضميره ووجدانه، فما العمل وهو الصبي الغض الذي لم يتعود على مثل هذه المسؤوليات، وليس معه من يساعده، أو يوجهه، أو يدله على سواء السبيل، ولكن لابد له أن يتصرف، فاهتدى إلى أن أولى الأولويات هي إخراج أبيه من السجن، إذا فلا بد من محام، ولكن أين له ذلك، وكيف يحصل على أتعاب المحامي، ثم اهتدى إلى الحل، هو بيع قطعة أرض يملكها أبوه، لكن الأب بعدما أبلغ بالقرار الذي اتخذه، عوض أن يشكر له مسعاه ،ويحمد له فعله، هاج وماج وثارت ثائرته واشتد غضبه وأقسم بالإيمان الغليظة لابنه على أن أول فعل يفعله بعد خروجه من السجن هو إلحاقه بصاحبه أي بالمتوفى، والولد يعرف أن

أباه إذا عزم على شيء فعله، وإذا أقسم بر بقسمه، فأيام حياته إذا معدودة بالأيام التي يقضيها الأب في السجن، ومع ذلك لم يتراجع عما عزم عليه من قبل، وهو إخراج الأب من السجن، وقد نجح في ذلك، وأعد خطة قبل ذلك ونفذها، إذ اختفى مباشرة بعد خروج الأب من السجن و لم يلتق به، و لم يخبر أحدا عما كان يعتزم القيام به فكانت وجهته تونس، مشيا على الأقدام، وبعد رحلة شاقة وتعب مضن مع الخوف والجوع وكل مظاهره البؤس والشقاء، وصل إلى تونس ومكث فيها سنين معدودة، عمل أعمالا مختلفة، ولكن أبرزها بيع تذاكر الحافلات (BUS) وقد ساعدته معرفته باللغة الفرنسية على ذلك، وأجزم أنه إلى جانب العمل كان يتردد على حلقات الدروس في جامع الزيتونة، ومن تونس سافر إلى مصر، وحقق أمنية العمر التي كان يتمناها منذ أن كان طفلا صغيرا يحفظ القرآن في مسجد القرية، أو في إحدى زوايا المنطقة، وهو الالتحاق بالأزهر الشريف، وقد لزم في الأزهر شيوخا أجلاء نهل من علمهم الواسع، واقتدى بسلوكهم الممتاز، أمثال الشيخ الدجوي والشيخ بخيت وما أدراك ما الشيخ بخيت صاحب الحاشية على المنهاج للقاضي البيضاوي في أصول الفقه، ومفتي الديار المصرية آنذاك، وبعد عشر سنوات من الدراسة تحصل شيخنا على أعلى الشهادات في الأزهر التي أهلته ليتبوأ منصب مدرس باقتراح من شيوخه لمدة ست سنوات، وبعد ثورة 1919 أجبرته السلطات الانجليزية بمغادرة مصر بعد أن وجهت إليه تهمة المشاركة في مظاهرات الطلبة في تلك الثورة، و لم تكتف السلطات الانجليزية في مصر بذلك، بل أعلمت السلطات الفرنسية وحذرتها منه فمنع من الدخول إلى الجزائر، إلا إذا ضمنه أحد، فلم يجد من يضمنه إلا قائد بني ورتلان آنذاك، وهو الباشاغا عمر بن عبيد، بطلب من إمام بني ورتلان وعائلة بن عبيد، من أكبر العائلات في المنطقة، أمدت السلطات الفرنسية بكثير من القياد والباشاغوات، منهم الصالح ومنهم الطالح، وهكذا سمح للابن العائد أن يلتقي بأهله وذويه، وأن يعانق تربة وطنه الذي خرج منه فارا من الأب والجهل والخوف، بزاد مادي مفقود، وزاد علمي يسير، لا يتعدى المبادئ الأولية في الفقه واللغة، وعاد إليه وهو العالم العلامة،

خريج الأزهر الشريف، ومعتل سدة التدريس فيه.

وكان كل ما يفكر فيه بعد أن استراح قليلا، هو تبليغ ما تحصل عليه من العلم لأهل بلده، ولهذا كانت أول خطوة خطاها هو إنشاء مدرسة في قريته بمساعدة المحسنين من أهل المنطقة، لتلقي العلم على يد هذا الابن الوفي لأهله ومنطقته، وكان يقول إن نشر العلم فيه سعادة الدنيا والدين– وهو واجب على الأمة أكيد – ولما يمض وقت طويل حتى شاع ذكر الشيخ، وطبقت شهرته العلمية الآفاق فتسابقت إليه زوايا المنطقة تطلبه شيخا لها، فوقع اختياره على زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، في جبال زواوة، (تيزي وزو)، إذ أن هذه الزاوية كانت تسير ديمقراطيا، من طرف طلبتها، وليس لها مقدم يشرف عليها، كشأن الزوايا الأخرى وقد كرس هذا الأسلوب في التسيير مؤسسها الأول الشيخ عبد الرحمن اليلولي،الذي حرم على أولاده التدخل في تسيير الزاوية، وبقيت كذلك إلى أن حولت إلى معهد لتكوين الإطارات الدينية، بعد استعادة السيادة الوطنية.

إذا قد وقع اختيار الطلبة على الشيخ الحافظي، وصادف هذا الاختيار هوى في قلب الشيخ، فتقبل هذا الاختيار بقبول حسن، وبمجرد أن التحق بالزاوية عمل على تطوير التعليم في الزوايا، من حيث الأسلوب والنوعية، وإدخال علوم حديثة في برامج التدريس، منها علم الفلك الذي كان من اختصاصه، ولهذا سمي بالفلكي، ولتجسيد هذا التجديد بنى ساعة شمسية في الزاوية، لضبط أوقات الصلاة، وما يزال هيكلها قائما إلى اليوم، وقد طاف بمختلف الزوايا مدرسا، وموجها، ومنبها لشيوخها، ومبشرا بطريقته التعليمية الجديدة. وباقتراح منه تحولت الزاوية الحملاوية من وادي العثمانية إلى مدينة قسنطينة، بعد أن طلب منه شيخها بتولي التدريس فحولها إلى معهد علمي حديث، يمكن أن يكون فرعا لجامع الزيتونة، وقد بقي هذا المعهد يقوم بأداء الرسالة التي سطرها له المولود الحافظي، حتى بعد وفاته، مواكبا لمعهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية.

المولود الحافظي الصحفي

بعد التعليم فإن الصحافة هي الجهة

الثانية لهذه الشخصية الفذة، فقد كتب إن لم يكن في كل الصحف التي صدرت في الجزائر منذ سنة 1920، إلى غاية وفاته سنة 1948، فإنه قد كتب في جلها وخاصة منها: المنتقد، والشهاب، والنجاح والبلاغ الجزائري، الذي هو مؤسسها، وصحف أبي اليقظان في غرداية، قد كان من أعمدة جريدة المنتقد التي أصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1925.

وقد كان أول مقال نشره في المنتقد، في العدد الثالث منه، الصادر في 24 ذي الحجة 1345هـ الموافق 16 جويلية 1925م، تحت عنوان "كتاب مفتوح إلى حضرات النواب المحترمين"، وحاور في هذا المقال،–وهو مقال طويل في أربع صفحات – بقوله: (مرحبا بكم أيها النواب المصلحون، إن رحبتم برغبات الأمة التي انتخبتكم واصطفتكم من بينها، وهنيئا لكم أيها الفائزون، إن جازت في عهدكم أماني أمتكم، وكلتكم على تحصيلها، فليست الصعوبة في انتخاب هؤلاء الأبطال مهما تباعدت الآراء، وتنازعت الأهواء كما يتوهم، بل الصعوبة في انتخاب الرأي الصائب، للوصول إلى مرمى أمة تطلب حياة وطنية بحكم الجنسية والقانون .....وإعداد ملابس الجند قبل الدخول في المعركة السياسية، وإسناد القيادة في الدفاع عن حقوق الشعب، إلى القواد العظام الذين لهم خبرة بمكامن الخصوم وحصونهم...

فليست الخيبة في الذين ترشحوا ... ولم يقبلوا، بل الخيبة كل الخيبة في الذين ترشحوا وقبلتهم الأمة بالرحب والسعة، ثم تنازعوا المحمدة والفخر بما لم يفعلوا– وليتفكر حضرات نوابنا أنهم روح الأمة، تكونت في الآباء، والأبناء، والأمهات، فليعملوا على حياة هذه الروح الكريمة جهد طاقتهم...).

وفي المقال الافتتاحي للعدد الرابع للمنتقد، كتب تحت عنوان ((في عالم الصحافة)).

نقتطف منه ما يلي: للصحافة في العالم المتمدن، منزلة عالية، ومكانة سامية في نفوس القراء الذين هم خيار الأمة، ومقياس رقيها، وانحطاطها، في مدنيتها وعمرانها البشري، وحالتها الاجتماعية، فيما تدعو إليه روابط الحياة القومية ودواعي النهضة الوطنية في تأسيس وحدتها، وتأليف جماعتها، حول مصالحها، وتعليم أبنائها

سبيل رشدها.....

فالصحف اليومية السيارة هي كشمس الوجود، تشرق على قرائها المترامية في أقصى المعمورة أشعة الأخبار النفيسة، والحوادث المتجددة، فتكون الأمة بأجمعها على بصيرة تامة بما يدلي في الزوايا وما يدبر في طي الخفايا، فالصحف مدرسة الشعب الكبرى عليها مدار حياته الاجتماعية، وهي في الحقيقة الواسطة العظمى في سبر الرأي العام والفكر الجمهوري، وهي التي تقود العامة إلى ميدان العمل، وهي لسان الشعب، تعبر عن الفكر العام، وتكشف الغطاء عن الخفايا، وتبين الحقائق بإيضاح، وترفع اللثام عن الحوادث المتخذة، وتنبه الجمهور إلى الواجبات الوطنية في الداخل والخارج ...

المولود الحافظي وجمعية العلماء:

لقد كان الحافظي من أوائل الذين دعوا إلى تأسيس جمعية العلماء، بل ربما كان أول داع لذلك، في مقال نشره في العدد التاسع من مجلة الشهاب، تعقيبا على نداء صدر في مجلة الشهاب عدد 3 ص 15، دعوة للعلماء المصلحين دعا فيه صاحبه العلماء إلى تأسيس حزب ديني محض، غايته تطهير الدين مما ألصقه به الجاهلون، فكتب الحافظي مقالا في العدد التاسع ص 5 في الشهاب، يجدد فيه الدعوة إلى تأسيس مثل هذا الحزب، ومما قاله:"نود أن يوفق رجالنا العلماء إلى هذا منذ زمن بعيد، إذ حالتنا الدينية قد أصبحت في آخر نقطة من الانحطاط، وداخلتنا البدع من حيث لا نشعر، منذ زمن ليس بالقليل، فطال عليها العهد حتى أصبحت محل اعتقاداتها من الدين، عند كثير من العوام، ومحل تهاون وتقصير في كثير من العلماء، وبحكم سريان القوة الغالبة من السواد الأعظم عليها ... ثم يمضي في تحليل عميق للحالة الدينية السائدة آنذاك، ثم يأتي باللائمة على العلماء لتقصيرهم في تبليغ الدين الصحيح، ثم يقدم اقتراح برنامج عمل لهذا الحزب في ثماني نقاط، ومن أهمها إنشاء مدارس يتعلم فيها النشْء بالطرق الحديثة، مع إدخال اللغة الفرنسية، ثم جمع الزكاة لتمويل مشروع المدارس، ثم تأسيس فروع لهذا الحزب في المدن والقرى تكون تحت مسؤولية الهيئة المركزية للحزب، ثم طبع الكتب ونشر مجلات علمية مع توسيع دائرة الوعظ والإرشاد، بالطرق الفنية، وأخيرا

ابتعاد الحزب عن الاشتغال بالسياسة، لأن ذلك من شأنه أن يعود على الحزب بالضرر والإبطال.

وعندما تأسست الجمعية، كان الحافظي من أشد الناس ابتهاجا بذلك، لأنه رأى دعوته قد أتت أكلها، ولو بعد حين، ولقد شغل المنصب الثاني للرئيس والمنصب الأول كان للشيخ البشير الإبراهيمي.

إن الدعوة لتشكيل هذه الجمعية استجاب لها كل من أحس في نفسه بأنه معني بالأمر، كل شخص صبغ على نفسه صبغة العالم، لذلك كانت الجمعية في بداية مشوارها تضم أطيافا وأصنافا من العلماء، تختلف مشاربهم وتتنوع مقاصدهم بل وتصطدم اتجاهاتهم، فمنهم المصلح، ومنهم الوهابي، ومنهم الوسطي، ومنهم الطرقي، بل ومنهم من كان يميل نحو فرنسا في قرارة نفسه، بل ويدافع عنها في المنتديات، وخاصة من كان منهم يتولى منصبا خلعته عليه، فقد تناسوا خلافاتهم حسب ما اتفق عليه قبل تأسيس الجمعية، ولكن ذلك لم يكن ليدوم طويلا، إذ القناعات اختلفت، والمبادئ تنوعت، والأهداف تعددت، وبلغ ذلك ذروته في الاجتماع الذي وقع في 4 ماي 1932، وانسحب من الجمعية من يمكن أن نسميهم بالمحافظين، وشيوخ الزوايا، والطرق، ومنهم الحافظي، فأنشاوا جمعية جديدة سموها بجمعية علماء السنة، أسندت رئاستها إلى الحافظي، وذلك في 15 جويلية 1932م.

ولكن الجرثومة التي نخرت من قبل جسد جمعية العلماء ،صحبت الجمعية الجديدة، فقضت عليها في أقل من سنتين فقط، وبعد حل هذه الجمعية انصرف الحافظي كعادته إلى العمل الفردي في الدعوة والإرشاد والتعليم، فهو فارس لا يشق له غبار في كل ميدان، فهو الداعي، وهو المعلم، وهو الصحفي، وهو المناظر والمحاور، والمجادل، ولكن بالحجة والبرهان، فقد ناظر الشيخ ابن باديس على صفحات الشهاب في عدة مسائل، منها قضية "المكس"،وكراء الأسواق، ومنها مناظرة فيما قام به مصطفى كمال أتاتورك، إذ أيد ابن باديس أتاتورك، وبارك عمله بينما الحفاظي يرى ما قام به أتاتورك في القضاء على الخلافة الإسلامية

خيانة للإسلام والمسلمين، وكذلك ناظر ابن باديس في مراتب العبادة، إذ يراها ابن باديس اثنتان: خوف وطمع، بينما الحافظي يراها ثلاث: خوف، وطمع، واعتراف. وقد أجاب الشيخ ابن باديس إجابة صريحة عندما طلب منه أن يدلي برأيه في مسألة التجنيس، إذ يقول: التجنيس حرام قطعا، لا يسوغ الإقدام عليه لما فيه من التزام ما يناقض شعائر ديننا، وأعظمها ظاهرة في تغيير سنة النكاح، والطلاق، والإرث، وكون الشعائر الأخرى سليمة من تبديل وتغيير ما يناقضها، لا تفضي بحال من الأحوال إلى جواز التجنيس مادام المساس ولو في شعيرة واحدة، هذا هو حكم الشرع في مقال بمجلة الشهاب – السنة 3 عدد 136 تحت عنوان " نحن في واد وأنتم في واد. فكيف يكون التفاهم، ومن أراد الاستزادة في هذا لموضوع فليرجع إلى الشهاب. كما ناظر مناظرة طويلة الشاعر الأمين العمودي، في سلسلة من المقالات في الشهاب، وناظر كذلك الشيخ الطيب العقبي، وكذلك ناظر كلا من الشيخين أبي يعلى الزواوي، ومبارك الميلي، في ذبائح أهل الكتاب، واللحوم المستوردة من أوروبا، ومن أراد الإطلاع على هذه المناظرة الشيقة والممتعة والمفيدة فعليه بالرجوع إلى مجلة الشهاب، وكذلك جريدتي النجاح والبلاغ الجزائري.

وقد كانت للحافظي كتابات كثيرة حول الخسوف والكسوف، وكذلك إثبات الأهلة بالحساب الفلكي، وفي الشمس والاعتدال الطبيعي، وفي جذور الحياة على الأرض...!

هذا هو العلامة المولود الحافظي، إذ إن ابن باديس هو أول من لقبه بهذا اللقب، ومن المؤسف أن كثيرا من مثقفينا وطلبتنا ،بل وعلمائنا، لا يعرفون هذه الشخصية الفذة من أبناء هذا الوطن المفدى.

دخول الموحدين إلى قلعة بني حماد
× نظرات وتأملات ×

بقلم الأستاذ: حبيب صافي
جامعة وهران

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أما بعد:

إن الدراسة الموضوعية للتاريخ من أصعب وأهم الدراسات في حقل البحث العلمي الجاد الموصل إلى نتائج تقارب الحقيقة وتلامسها، لأنه مثل تلك الدراسات تعاني من التدخلات العاطفية المبنية على النزعات والعصبيات الطائفية والعرقية، وتحت تأثيرات سياسية واجتماعية وثقافية وغيرها.

والموضوع الذي بين أيدينا يعالج فترة تاريخية حساسة عانت فيها منطقة الجزائر وخاصة الوسط منها من حروب ونزاعات ساهمت في زعزعت المنطقة زعزعة جعلتها مدونة تاريخية للعديد من الأحداث المتعاقبة تعاقب الملوك والدول المتوالية عليها، ومن بين تلك الأحداث دخول الموحدين وسيطرتهم على ملك الحماديين، وبخاصة سيطرتهم على القلعة[1] وبجاية لأنهما المعقل الرئيس لحكم تلك المملكة، فالقارئ لما كتبه المؤرخون عن ذلك سيجد الكثير من التأملات والنظرات التي تدعو إلى كثير من التحقيق والتحليل، وخاصة تاريخ الحماديين والموحدين والمرابطين، الذي يعتبر من أهم المراحل التي مر بها مغربنا.

قامت دولة الموحدين على أسس ومبادئ معروفة، فقد حاربوا المذهبية الفقهية –وخاصة كتب المالكية لأن المذهب المالكي كان هو السائد بالمغرب والأندلس آنذاك– بحرقهم لكتب الفروع وقالوا: أن الفقه يؤخذ من الكتاب والسنة

مباشرة، كما أنهم قد استطاعوا تقويض الحكم الفاطمي الشيعي الذي كان سائدا في المغرب بقضائهم على الموالين له من صنهاجة وغيرهم، كما استطاعوا فتح صراع كبير مع الصليبيين واستردوا الكثير من المناطق الإسلامية التي كانت بأيدي النصارى، كل ذلك مما ذكره المؤرخون وهو من حسناتهم، ولكن التاريخ في الجهة المقابلة قد دوَّن جرائم الإبادة بمراكش ووهران وبجاية والقلعة وغيرها، ولذلك كان التعرض لمثل هذا الموضوع بشيئ من التأمل والتحليل والموضوعية قد يسلط الضوء على بعض الأخطاء البشرية من المسلمين وفيه تنبيه كذلك على أنه مهما بلغت الأخطاء فلا علاقة لها بتعاليم الدين الإسلامي.

وما يمكن التنبيه عليه كذلك ولو عرضا، هو أن البربر قد حكموا أنفسهم مدة ليست بالهينة بل إن معظم الحقب التاريخية كان فيها البربر بالمغرب مستقلين استقلالا سياسيا، بل إن ولاءهم للفاطميين أو للعباسيين كان ولاء دينيا أما الولاء السياسي الحقيقي فقد كان بأيديهم، وتأكيد لذلك يقول الذهبي: (أول من كان فيهم الملك من البربر صنهاجة [2] ثم كتامة ثم لمتونة ثم مصمودة ثم زناتة[3] ولنبدأ ذلك بالأحداث الدائرة في المنطقة قبيل سيطرة الموحدين:

مخاض الأحداث بالمغرب الكبير:

في ظل حكم الفاطميين غير المستقر بالمغرب الكبير اقتسم البربر حكم المغرب الكبير، فبالمغرب الأقصى حكمت قبائل زناتة، وبالوسط تنازع بني زيري الصنهاجيين وبني عمومتهم من الحماديين فحكم المتأخرون الجزائر مدة تسمى بحكم بني حماد أو الدولة الحمادية، وكانوا امتدادا لحكم بني عبيد الفاطميين، أما بتونس فقد حكم بنو زيري ولكن حكمهم قد فني على يد الهلاليين وبني جشم، ففي ظل حكم المعز بن باديس بتونس –وهو من أهم وأعظم ملوك بني زيري– انفصلت دولته عن الدولة الفاطمية بعد ولاء طويل، فقد خطب لخلفاء بني العباس، ونزع من الآذان عبارة(حي على خير العمل) وكان ذلك سنة ثلاث وأربع مائة للهجرة(443هـ)، وهو ما جعل المغرب في ذلك الزمان منطقة غليان فالمستنصر الفاطمي ثارت ثائرته لما فعله بن باديس، فرأى أن يثير بعض القبائل

العربية (ففاوض وزيره أبا محمد الحسن بن علي اليازوري في أمر ابن باديس فأشار عليه بأن يسرح له العرب من بني هلال وبني جشم الذين بالصعيد وأن يتقدم إليهم بالاصطناع ويستميل مشايخهم بالعطاء وتولية أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها بدلا من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالا بتلك القاصية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك. فبعث المستنصر وزيره إلى هؤلاء الأحياء وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم وأباح لهم إجازة النيل وقال لهم قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآباق فلا تفتقرون بعدها، وكتب اليازوري إلى المعز أما بعد فقد أنقذنا إليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا، فشرهت العرب إذ ذاك وعبروا النيل إلى برقة فنزلوا بها واستباحوها[4].

وقد أخرب هؤلاء حضارة القيروان وتونس مما لا مجال لوصفه، وفي ظل هذه الأحداث كانت قد تطورت الدولة الموحدية قاضية على خصومها واحدا تلو الآخر منتهزة الفرص للسيطرة على الجزائر وتونس، وهو ما يؤكده صاحب كتاب الاستقصاء في النص الآتي:(... بلغ عبد المؤمن اضطراب بلاد إفريقية بسبب تنازع ملوكها من بني زيري بن مناد الصنهاجيين واستطالة العرب عليهم بها فأجمع الرحلة إلى غزوها بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وأبا إبراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه فخرج من مراكش أواخر سنة ست وأربعين وخمسمائة..[5]

فمن خلال هذا النص التاريخي نجد أن الموحدين انتهزوا الفرص المناسبة للقضاء على خصومهم، وهذا من سنن كل الدويلات التي نشأت عبر التاريخ، وقد عبر عن ذلك الدكتور عبد الحليم عويس بقوله: لقد كانت دولة بني حماد انفصالا من انفصال .. وسارت في طريقها فكان طريقها على امتداده زاخرا بالمشاكل، وعلى امتداد هذا التاريخ كانت الحروب شبه دائمة بين الحماديين وقبيلة زناتة وبني زيري[6].

فقد بنوا مجدهم على أنقاض من كان

قبلهم، فمثلا قد كان مجون وضعف يحي بن عبد العزيز الصنهاجي آخر ملوك الحماديين، وكثرة النزاعات التي ذكرت من أهم المساعدات على السيطرة السهلة على البلاد الجزائرية التي كان يحكمها بني حماد.

سيطرة الموحدين على قلعة بني حماد وبجاية:

والتاريخ يعيد نفسه، فبعد أن تضافرت الظروف ودعت الأسباب إلى سير الموحدين بقيادة عبد المؤمن إلى البلاد الجزائرية، قام فعلا بغزوها– وقد كان هذا كارثة أخرى تسجل للموحدين، بعد الإبادة الجماعية للمرابطين، وتتبع آثارهم في البلاد المغربية– فقصدوا بجاية وحاصروها حصارا شديدا ودخلوها دون كثير عناء، ومنها إلى قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم، وحرزهم الأمنع، واقتحموها عنوة، فخربوها، وأضرموا النار في مساكنها، وقتلوا جيوش بن العزيز[7]، وهو ما يعتبر تخريبا وغزوا لا فتحا كما يصطلح عليه بعض المؤرخين، لأن المطلع على الحال التي آلة إليها الدولة الحمادية آنذاك سيجد أنه كان بالإمكان عدم اللجوء إلى الحرق والتخريب، بل والأدهى من ذلك كله التقتيل البشع مع القدرة على العفو أو على الأقل السجن،

والترتيب التاريخي للأحداث يمكن استنتاجه من النص الآتي:)ولما دان لعبد المؤمن جميع أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون على ما قدمنا وأطاعه أهلها جمع جموعا عظيمة وخرج من مراكش يقصد مملكة يحيى بن العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجي وكان يملك بجاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لمتمونة فقصده عبد المؤمن كما ذكرنا في شهور سنة 540هـ، فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق فلما رأى يحيى ابن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم هرب في البحر حتى أتى مدينة بونة[8] وهي أول حد بلاد أفريقية ثم خرج منها حتى أتى قسطنطينة المغرب فأرسل إليه عبد المؤمن رحمه الله بالجيوش فاستنزل وأتى به عبد المؤمن هذا بعد أن عاهد عبد المؤمن أن يؤمن يحيى في نفسه وأهله ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها وملك قلعة بني حماد وهي معقل صنهاجة الأعظم وحرزهم الأمنع فيها نشأ ملكهم ومنها

انبعث أمرهم.

وكان يحيى هذا وأبوه العزيز وجداه المنصور والمنتصر وجدهم الأكبر حماد من شيعة بني عبيد وأتباعهم والقائمين بدعوتهم ومن بلادهم أعني صنهاجة قامت دعوة بني عبيد وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها، فلم يزل ملك بني حماد هؤلاء مستمرا ودولتهم قائمة وأمرهم نافذا لا ينازعهم أحد شيئا مما في أيديهم إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملَكه بأسره وضمه إلى مملكته أبو محمد عبد المؤمن بن علي في التاريخ الذي تقدم.

ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها رتب من الموحدين من قوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها واستعمل عليها ابنه عبد الله وكر راجعا إلى مراكش ومعه وفي جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسي الفاخرة والأموال الوافرة وخص يحيى من ذلك بأجزله وأسناه وأحفله ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها.

بلغني من طرق عدة أن يحيى بن العزيز كان في مجلس عبد المؤمن يوما فذكروا تعذر الصرف فقال يحيى أما أنا فعلي من هذا كلفة شديدة وعبيدي في كل يوم يشكون إلي ما يلقون من ذلك ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف وذلك أن عادتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بياعاتهم فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها وقال لرسوله قل له لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا إن شاء الله عز وجل.

وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش مرتبا للأمور المختصة بالمملكة من بناء دور واتخاذ قصور وإعداد سلاح واستنزال مستعص وتأمين سبل وإحسان إلى رعية وما هذا سبيله[9] فكانت نهاية الحماديين بكل ما حملته من مفارقات وغرائب فالأبرياء يقتلون وحكامهم يكرمون، والحصار والقتل والتحريق ينال

من حضارة كانت قائمة تاركة ورائها الملك دولة أخرى.

هكذا سطر هؤلاء تاريخهم ببناء مجدهم على أنقاض غيرهم، ورحم الله الدكتور عويس عندما عبر عن تلك الدولة المتساقطة عبر تاريخ هذه الأمة بالأوراق الذابلة في حضارتنا، فمن بين التعابير التي أتى بها في كتابه دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية والتي تستحق التأمل والنظر قوله في دراسته لسقوط الموحدين:(إنك تستطيع أن تنتصر في معركة، وأن تقهر عدوك وأن تحكم بالموت على مدينة بريئة، وقد يكون ذلك انتصارا لك ويمد التاريخ في عمرك عدة سنوات !!.

لكن .. أن تصنع حضارة وأن تبني دولة تبقى .. أن تمد التاريخ بصناع مبدعين .. أن تفعل ذلك وأكثر منه، فهناك طريق آخر .. طريق ليس " الدم " من معالمه، بل هو أبرز صخوره وعوائقه .

هذه حقيقة من حقائق الحضارة أكثر منها حقيقة من حقائق التاريخ !!)[10]

إنه لمن المؤسف أن نقرأ مثل تلك الأحداث في تاريخ حضارتنا، والأدهى أن نلصقها بالعقيدة الإسلامية الصافية، إذ ينبغي أن نعلم أن أخطاء الأشخاص لا تعني بأي حال من الأحوال أنّها تعاليم إسلامية، وما فعله الموحدون تحت أي غطاء من السنة أو العقيدة المهدوية أو دعوى محاربة الخوارج أو البدع لا يمكن تبريره ولا يمكن الإفتاء بجوازه مهما حاول ذلك من حاول، إن أخطاء العبيديين مشؤومة وكثيرة، ولكنها كذلك من الإسلام بعيدة، فهل نحارب الخطأ بالخطإ، عبد المؤمن –كما جاء في بعض من ترجموا له– على جلالة قدره وغزارة علمه إلا أن اضطهاد الصنهاجيين الحماديين والمرابطين وغيرهم ماهو بالتصرف الحكيم مهما بلغ العدو من الطغيان، كيف ذلك وقد فعل أكثر مما فعله في بجاية وقلعة بني حماد، فنجد أن التاريخ شاهد على الإبادة الجماعية التي تعرض لها المرابطون بوهران رغم استسلامهم، فليتأمل قارئ التاريخ في أخطاء الأشخاص، وكي يكون بمنأى عن الشبهات لابد أن يفرق بين تلك التصرفات الخاطئة المشينة، وبين تعاليم الإسلام.

ومما يدعو للدهشة والحيرة أن عبد المؤمن قد أكرم آخر ملوك بني حماد إكراما غير منتظر، وفي هذا يقول صاحب المعجب:(...ولما ملك عبد المؤمن ببجاية

والقلعة وأعمالها رتب من الموحدين من قوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها واستعمل عليها ابنه عبد الله وكر راجعا إلى مراكش ومعه وفي جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسي الفاخرة والأموال الوافرة وخص يحيى من ذلك بأجزله وأسناه وأحفله ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها...[11]، قد نتساءل ونقول أن هذا تصرف لائق جدا، وهو ما تقتضيه الواجبات الإنسانية، ولكن المفارقة هو أن عبد المؤمن قد خرب معلما تاريخيا عمرانيا هو القلعة بالحرق والتخريب، وقد أضاف إلى ذلك كله التقتيل الجماعي البشع، وهو ما جعلني أتوقف طويلا عند هذا الموقف من عبد المؤمن مع يحي بن عبد العزيز ملك الحماديين.

ومن المواقف التي تستدعي الوقوف هو أن عبد لمؤمن لم يتعرض لأموال أهل بجاية، وهو ما نقله: (...ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال.... لما فتح عبد المؤمن بجاية لم يتعرض إلى مال أهلها ولا غيره وسبب ذلك أن بني حمدون استأمنوا فوفى لهم بأمانه ...[12] وهو موقف يحسب لعبد المؤمن رغم أنه قد اعتمد السيف والدماء في بناء الدولة، وتصرفه هذا ببجاية يخالفه تماما –كما ذكر –ما فعله بقلعة بني حماد، حيث أنه بعد إحكام السيطرة عليها أضرموا فيها النيران وسلبوا الأموال بعد هروب أهلها إلى الجبال.

والخلاصة أن تاريخ دول المغرب الكبير مليء بالأحداث التي تدعو إلى التأمل والنظر، ففيها الكثير من المفارقات العجيبة، والتناقضات الغريبة.

النظرات والتأملات:

من الممكن أن نخلص إلى العديد من التأملات والنظرات، التي حملتها تلك الأحداث:

– من مبادئ دولة الموحدين القضاء على الخرافة والبدع وتصحيح العقائد الفاسدة آنذاك كالتشيع والخوارج ولكن ما فعلوه يعد سابقة من حيث كثرة الفقهاء والعلماء في مجالسهم وما هو رد فعلهم إزاء قتل النفوس البريئة المسلمة، إنها لوقفة مدهشة في تاريخنا.

– التأمل في التخريب والنهب والسبي الذي عان منه الحماديون والمرابطون وغيرهم رغم أنهم وباتفاق العلماء يعتبرون من أهل القبلة المسلمين الذين لا يسلب مالهم ويحرم قتلهم.

– السنة الإلاهية واحدة فكل من أسس بنيانه على غير هدى منه فهو آيل للسقوط لا محالة، فالحماديون نازعوا بني زيري الحكم والوحدة بين الجزائر وتونس وقد أتى من قضى عليهم كما قضي على بني عمومتهم بتونس.

– رغم ما فعله الموحدون ببجاية وقلعة بني حماد إلا أنه قد حدث ما يدعوا للاستغراب –كما سبق– بل إنه يترك الحليم حيرانا، فقد قتل الموحدون الخلق الكثير من الأبرياء وحتى المقاومين من الحماديين ومن المنتظر هو قتل رؤوسهم، كما فعل الموحدون بالمرابطين إلا أنه قد حدث العكس وهو أنهم قد أكرموا يحيى بن العزيز آخر ملوك بني حماد وهو مالا يقبله الميزان التاريخي لتلك الدولة وما فعلته بالمسلمين بدعوى القضاء على الخرافة وإحياء السنة.

هذا ما استطعت تلخيصه والتعرض إليه عله يكون عبرة تاريخية تسهم في إعادة النظر في النماذج الفاشلة التي تمثل جزءا من بناء هذه الأمة علها تصحح المنهج وتساير العصر ومتطلباته بتطبيق الإسلام الصحيح.

أسأل الله تعالى أن ينفع بها، وأن يتجاوز ما فيها من خطأ.

الهوامش

(1). (قلعة بني حماد هي أشير) معجم البلدان ج3 ص113

(2) . صنهاجة و الصنهاجي بضم الصاد المهملة وكسرها وسكون النون وبعد الألف جيم نسبة إلى صنهاجة قبيلة مشهورة من حمير وهي بالمغرب قال ابن دريد: صنهاجة: بضم الصاد لا يجوز غير ذلك انتهى ما أورده ابن خلكان ملخصا) شذرات الذهب ج02 ص179

(3). سير أعلام النبلاء ج18 429/428

(4). كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري دار الكتاب الدار البيضاء، سنة :1997 الطبعة الأولى، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري ج01 ص165

(5) . نفس المصدر ج01 ص 120.

(6) .دراسة لسقوط ثلاثين دولة لإسلامية لعبد الحليم عويس ص 168

(7). صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي دولة الموحدين علي محمد الصلابي ص87

(8). مدينة بونة: وسطة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ومقدارها في رقعتها كالاربس وهي على نحر البحر وكانت لها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح موجودة وكان فيها كثير من الخشب موجود جيد الصفة ولها بساتين قليلة وشجر وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها وأكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير في أوقات الإصابات ...وبها معادن حديد جيد ويزرع بأرضها الكتان والعسل بها موجود ممكن وكذلك السمن وأكثر سوائمهم البقر ولها أقاليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها... وعلى مدينة بونة وبجنبيها جبل يدوغ وهو عالي الذروة سامي القمة وبه معادن الحديد التي ذكرناها آنفا(... كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج01 ص 291

(9). المعجب ج01 ص 204 إلى 207

(10) . دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية لعبد الحليم عويس ص 171

(11). المعجب ج01 ص206.

(12). كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري دار الكتاب الدار البيضاء، سنة :1997 الطبعة الأولى، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري ج01 ص 121.

حفظ النفس في الإسلام

مديرية الشؤون الدينية و الأوقاف
لولاية تلمسان

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أفاض علينا من نعمه و هدانا للإيمان بفضله وجوده نسأله أن يجنبنا مرارة الظالمين و أن يجعلنا يوم الحساب من الآمنين وأشهد أن لاإله إلا الله ذو القوة المتين و أشهد أن سيدنا محمداً رسول رب العالمين أخرجنا من الظلمات إلى النور و هدانا إلى الصراط السوي المبين فاللهم صل وسلم و بارك عليه وعلى آله وصحبه وكل من تمسك بهديه و سار على نهجه .

أما بعد، أيها الإخوة المؤمنون فإن الله تبارك و تعالى حينما خلقنا لم يخلقنا عبثاً و لم يتركنا هملاً بل فضلنا على سائر مخلوقاته فقال جل من قائل ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء: ٧٠، و إن أعز ما يمتلكه الإنسان هي نفسه التي بين جنبيه فمن أجلها يكد ويشقى و بالمحافظة عليها يسر و يرقى و مما لا شك فيه فإن الله سبحانه و تعالى كرم الإنسان فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه و أسجد له ملائكته وسخرله ما في السموات والأرض جميعاً و جعله خليفة عنه وزوده بالقوى و المواهب ليسود الأرض و ليصل إلى أقصى ما قدر له من كمال مادي و إرتقاء روحي، ولايمكن أن يحقق الإنسان أهدافه و يبلغ غايته إلا إذا توفرت له جميع عناصر النمو و أخذ حقوقه كاملة غير منقوصة، وفي طليعة هذه الحقوق التي ضمنها الإسلام حق الحياة .

لقد اتفقت الشرائع السماوية كلها على أن تحفظ للإنسان خمس ضروريات بها قوام حياته و عليها مدار وجوده، هذه الضروريات هي:

الدين – و النفس –و العرض – و العقل – و المال .

نكتفي بالحديث عن النفس أو الحياة و ما يهددها من أخطاء، لقد خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال " **أيها الناس إن نسائكم و أموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت فللهم فاشهد إلى أن قال كل المسلم على المسلم حرام دمه و ماله و عرضه** .... ".

ويقول الله تبارك و تعالى :﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الأنعام: ١٥١، و إن الحق الذي تزهق به النفس هو ما فسره الرسول الكريم حينما قال :" **لا يحل دم أمرء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله و إني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني أي المتزوج إذا زنى – والنفس بالنفس – و التارك لدينه المفارق للجماعة**" يعني المرتد عن دين الإسلام، ففي هذه الحالات الثلاث يجوز إزهاق النفس و قتلها إقتصاصاً من الجاني .

و من حرص الإسلام على حماية النفوس أنه هدد من يستحلها بأشد عقوبة فيقول الله تعالى :﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٩٣ " و الرسول الكريم عليه الصلاة و السلام يقول :" **لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق** " رواه ابن ماجة بسند حسن و روى الترميذي بسند حسن عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :" **لو أن أهل السماء و أهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار** " .

وقد يستوي في التحريم قتل المسلم الكافر و قاتل نفسه، ففي قتل الكافر جاءت أحاديث صحيحة توجب النار لمن قتله، روى البخاري عن عبيد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :" **من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة و أن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً هذا بالنسبة للكافر فما بالكم بالمؤمن، أما قاتل نفسه فإن الله يقول** ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ **ويقول النبي** ﷺ"

من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في دار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً و من تحسى سمًا فقتل بها نفسه فسمه في يده يتحساه في دارجهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يترجا في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً " ولعظيم أمر الدماء و شدة خطورتها فهي أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة .

واعلموا أيها الإخوة أن القتل ينقسم إلى ثلاث أقسام :

– قتل العمد و شبه العمد و قتل الخطأ، فالقتل العمد لا يتحقق إلا إذا توفرت فيه الأركان الآتية: أن يكون القاتل عاقلاً بالغاً قاصداً الجريمة يقول النبي ﷺ :" **رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق و على النائم حتى يستقيظ و عن الصبي حتى يحتلم** "، و إذا كان القتل عمداً فإنه يترتب عليه القصاص، وقد شرع القصاص، لأن القاتل إذا علم أنه سيقتل كما قتل لا شك أنه سيرتدع فيحيي نفسه من جهة و يحيي من كان يريد قتله من جهة أخرى .

– أما القتل الخطأ هو: أن يفعل المكلف ما يباح له فعله فيصيب إنسانا معصوم الدم فيقتله عن غير قصد، كمن يحفربئراً فيرتدي فيها شخص أو يدوس إنساناً بسيارته أو يتسبب في حادثة من حوادث المرور تودي بحياة شخص أو أشخاص إلى الوفاة ففي هذه الحالة لا يقتص من المتسبب في القتل لأنه لم يفعل ذلك عن قصد و إنما عن خطأ، و كما هو معلوم فإن القتل الخطأ يوجب أمرين أحدهما الدية، و ثانيهما الكفارة وهي عتق رقبة مؤمنة سليمة من العيوب فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين .

قال الله تعالى :﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ النساء: ٩٢ .

– اللهم أن نشهد أن الإسلام بريئ من قاتل الأنفس و نشهد أن الإسلام بريئ من سفك الدماء و اهدارها .

اللهم إن نشهد أن الإسلام بريئ مما يرتكب من إزهاق للأرواح و اغتيال للأبرياء وبريئ من الإرهاب و من العنف و التطرف و بريئ من كل عمل يفرق الجماعات و يشتت الصفوف، فأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم .

– اللهم اجعلنا ممن يستجيبون لك و ممن يستجيبون لنبيك .

– اللهم اجعلنا من المؤمنين الطائعين، اللهم باعد بيننا وبين فعل الحرام وبيننا وبين المنكرات كما باعت بين السماء و الأرض، اللهم أجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ياأرحم الراحمين أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ولوالدينا و لجميع المسلمين .

و السلام عليكم ورحم الله وبركاته .